الكتاب المسيحي

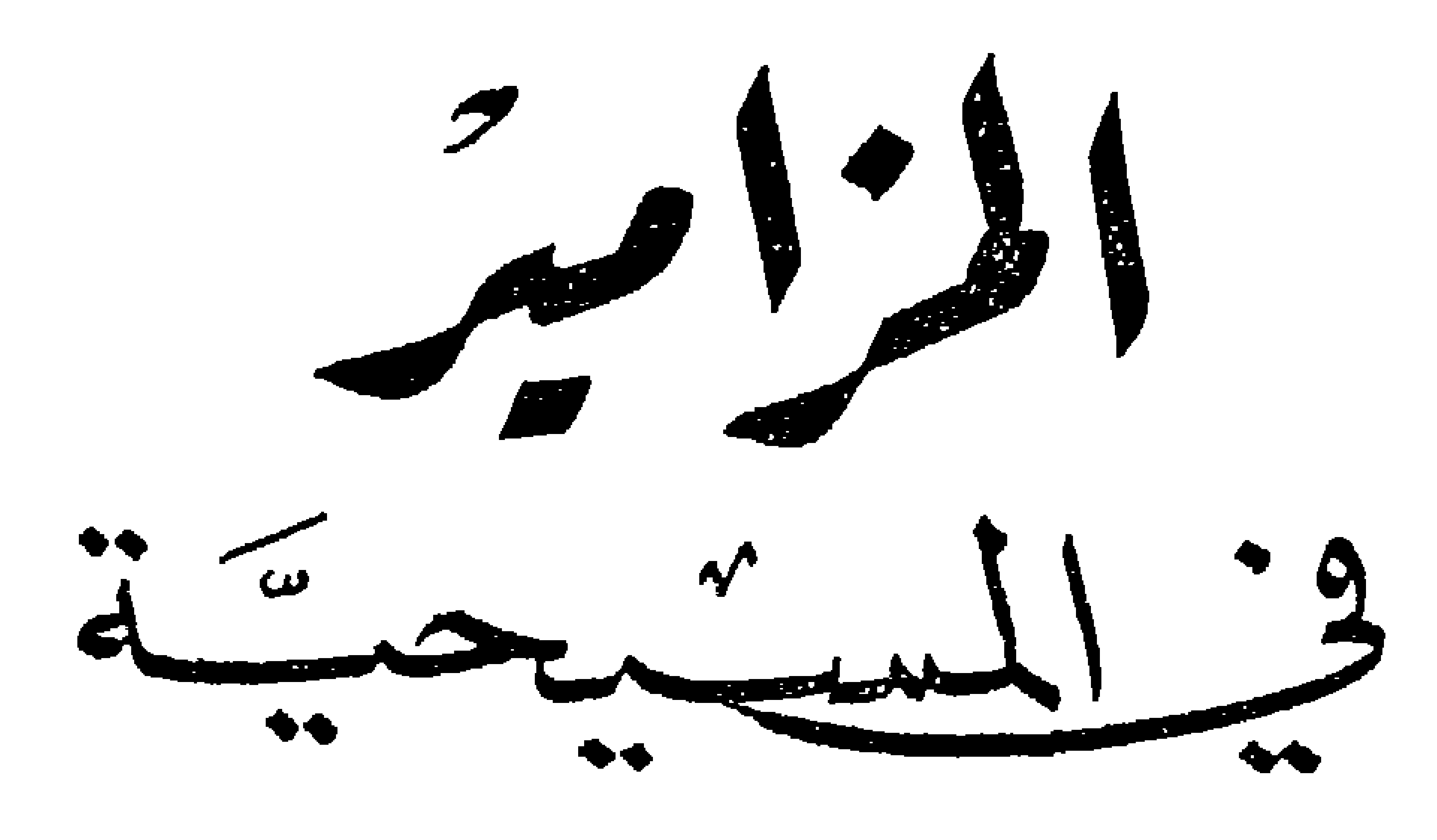
المزامير في المسيحية



اهداءات ٢٠٠٣

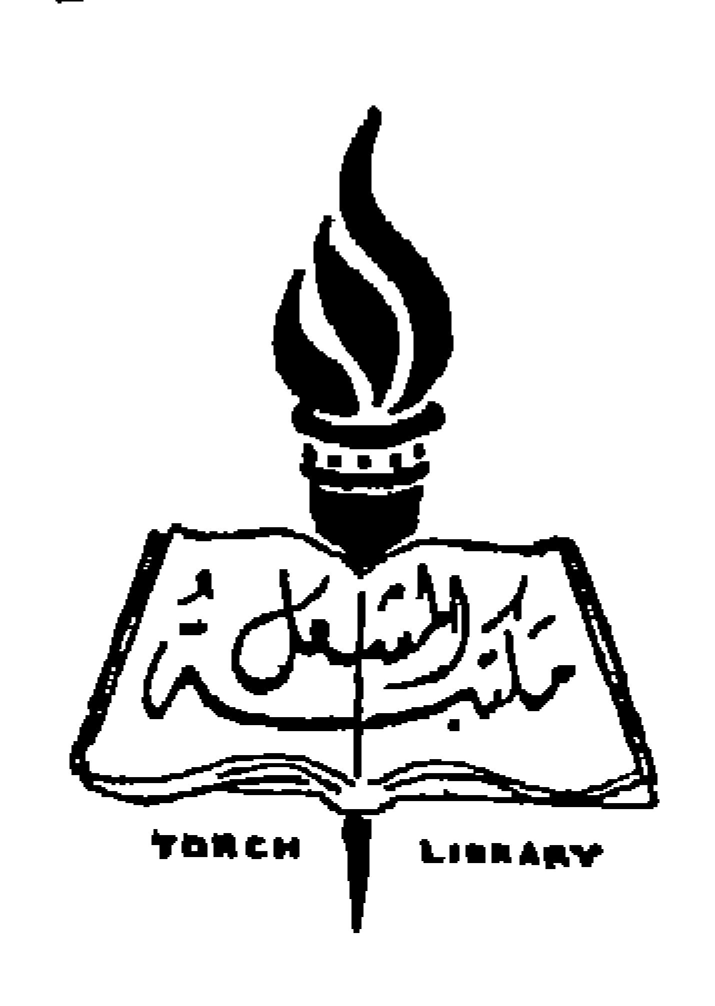
الفنان / إلهامي حسن

القاهرة



تأليف ر. ب. سكوت

ترجمة: القس حنا خوري



صدر عن :

مكتبة المشعل الانجيلية – بيروت

عام ١٩٦٠

The Pslams As Christian Prayer

From : The World Christian Books

by R. B. Y. Scott

تقديم الكتاب

■

قام الباحثون الاخصائيون من رجال الادب المسيحي بجولات في انحاء العالم للوقوف على حاجات القراء ومطالبهم وقد اجمعت المصادر التي استقوا منها بياناتهم على افتقار شديد الى سلسلة من الكتب المسيحية تعين رجال الدين في المناطق النائية الذين لا تتوافر لهم المكتبات العامة ، وتعين السواد الاعظم من العلمانيين الذين يتوقون الى دراسة المسيحية ورسالتها ومبادئها ، ولا يجدون ضالتهم في الكتب اللاهوتية العلمية التي يعسر عليهم مسايرة افكارها العميقة ، وتعيين لمرشدين والمعلمين الذين يتولون شرح الاسفار المقدسة ، وتهذيب الاحداث في مدارس الاحد ، واثارة اذهان طلاب الحق اينما وجدوا .

لذلك قرر « مجلس المرسليات العالمي » ان يكفل اصدار سلسلة من الكتب المسيحية العالمية . وقد وقع الاختيار على زعيم من زعماء المسيحية في الغرب – هو الاسقف « ستيفن نيل » – ليشرف على اصدار هذه السلسلة ، تعاونه طائفة من كبار المفكرين ورجال الدين في مختلف انحاء الارض . ويشترك في هذا المشروع الجليل بالجهد والمال ، مجلس اتحاد الكنائس العالمي ، والمرسليات والكنائس والمجالس المسيحية في امريكا وبريطانيا

واوروبا واسيا وافريقيا . وستعالج هذه السلسلة شتى الموضوعات المسيحية مثل : دراسة الكتاب المقدس - وتطبيق المبادي. المسيحية في الحياة العصرية - وتقوية حياة الخشوع والعبادة - وسير تراجم زعماء المسيحية في الاجيال المتعاقبة - وتاريخ الكنيسة - ومشاكل العصر مثل الشيوعية .. والمال ... وحياة الاسرة .

وقد رُؤي ان تُكتب هذه السلسلة باللغة الانكليزية اولاً ، وان تكون مختصرة موجزة بحيث لا يربو حجم الكتاب على مئة صفحة وتنقل بعد ذلك الى لغات العالم المختلفة .

وقد صحّت عزيمة « لجنة التأليف والترجمة والنشر للمجلس المسيحي بالشرق الادنى » على ان تنقل كتب هذه السلسلة الى اللغة العربية تحت عنوان « الكتاب المسيحي » : وها نحن نقدم الآن لقراء العالم العربي الكتاب السابع عشر من هذه السلسلة « المزامير في المسيحية » تأليف ر ب سكوت ، وقد نقله الى العربية القس حنا خوري . وستظل اجزاء هذه السلسلة تصدر تباعاً ونأمل ان تكون مصدر وحي للكثيرين .

وانّا نرجو صادقين ان تكون هذه السلسلة مشكاة تنير بعض المشاكل التي تحير عقول ابناء هذا الشرق ، وتهديهم الى سواء السبيل . .

حبيب سعيد (سكرتير اللجنة)

فصول الكتاب

■

تمهيد للكتاب

عندما نفتح الكتاب المقدس نصفياً نجد بان سفر المزامير قد توسط القلب . وهذا الامر ذو معنى خاص ، لان سفر المزامير يعتبر قلب الكتاب المقدس من عدة وجوه . فما تعنيه التوراة للمؤمن المسيحي كتاريخ افتداء الله للجبلة البشرية وكمعين لا ينضب من النعمة التي بواسطتها ما زال الله يكلم البشر ، هكذا يعني سفر المزامير بطريقة خاصة .

وهذا لا يعني بان سفر المزامير هو افضل بنظرنا من الاناجيل والرسائل التي تخبرنا عما فعله الله من اجل خلاصنا في حياة وموت وقيامة الرب يسوع المسيح ، بل بالعكس لاننا بدون هذه الاسفار الاخيرة نكون محرومين من التوراة المسيحية . ومع ذلك فكامل العهد الجديد لا يقدم لنا ما يقدمه سفر المزامير من الصلوات والحمد والتسبيح التي بواسطتها نتمكن من التجاوب مع رسالة الانجيل . وليس من شبه للمزامير سوى تسبيحة مريم ، ونبوءة زكريا ، وصلاة سمعان الشيخ الواردة في الفصلين الاولين

من بشارة لوقا . فهذه هي مزامير مسيحية منظمة على غرار مزامير العهد القديم . واما مزامير سفر الرؤيا فهي من نموذج آخر .

وهذا هو السبب الذي يحملنا على اختيار سفر المزامير ، دون سائر اسفار العهد القديم ، لاضافته الى اسفار العهد الجديد اذا ما حاولنا ان نجعل منها مجلداً مسيحياً واحداً . لاننا فيه نجد افضل لغة نستطيع ان نستخدمها في مخاطبتنا لله الآب كما عرّفنا به ربنا يسوع المسيح . اننا بحاجة الى عبارات للافصاح عن انفسنا في الصلاة والشكر ولسنا نجدها الا في المزامير . وهذا أمر مستغرب خاصة عندما نفكر بان ناظمي تلك المقاطع عاشوا وقضوا حياتهم قبل ولادة الرب يسوع . فالله الذي نعبده كان قد كلمهم بارادته الطاهرة واظهر لهم صلاحه وقدرته المخلصة . فهم ايضاً كانوا شعبه وغنم مرعاه .

فالسبب الاول الذي يحملنا على ان نعتبر المزامير كتسابيح حمد في الكنيسة المسيحية هو كونها تحتل المركز الرئيسي في اعلان الله ذاته للبشر . فالعهد الجديد يكاد يكون ناقصاً بدون العهد القديم . فهو اشبه بشجرة بدون جذور ، او بعقدة رواية بدون مقدماتها . والعهد الجديد سمي كذلك لان الله كان قد سبق فعمل عهداً قديماً مع شعبه . وهكذا جاء المسيحيون

الأولون فانتحلوا اسفار اليهود المقدسة وكان العهد القديم توراتهم الوحيدة حتى كتابة الاناجيل والرسائل وجمعها في مجلد واحد .

والسبب الآخر الذي يحملنا على اعتبار المزامير تسابيح حمد مسيحية هو انها قابلة اكثر من باقي الاسفار لتتعمد باسم المسيح . ثم ان الاناجيل نفسها تشهد بان الرب يسوع نفسه كان يغذي روحه بالتأمل والصلاة مستخدماً تلك المزامير عينها . وقد اقتبس كثيراً من آياتها بطريقة عفوية ، مما يدل على انه كان يحفظها غيباً ، وجعلها واسطة ارتباطه مع ابيه السماوي وشركته معه . في اشد ساعات آلامه نجده يصرخ الى ابيه السماوي مستخدماً مستهل المزمور ٢٢ قائلاً : الهي الهي لماذا تركتني . . . ! وفي عدد ثانٍ في المزمور ذاته نجد تحقيقاً لتلك الصلاة : « اتكل على الرب فلينجه لينقذه لانه سُرَّ به » . مزمور ٢٠ : ٨

فالتلاميذ الأولون اقتداء بسيدهم ومعلمهم واعتماداً على اختبارهم حقيقة وقوة المزامير الروحيتين بدأوا يستخدمون تلك المزامير في عباداتهم ، وتبعتهم الكنيسة المسيحية من ذلك الوقت الى زمننا الحاضر . غير انه تبين بعد حين ان تلك العبادات القديمة صارت غنية بمعناها الروحي لدى المؤمنين والمؤمنات في الكنيسة المسيحية ، فالايمان الذي عبروا عنه في وقتهم كان ذا

اساس ثابت وطيد ، وترانيم الحمد التي ترنموا بها كانت غنية بروحها ونحواها . واما صرخة الحاجة فصار بامكانهم ان يوجهوها الى الاله الذي احب العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية .

اذن منذ بدء الكنيسة المسيحية وعبر القرون التي مرت عليها كان للمزامير القسط الاوفر في الاستعمال ، كما كانت ذات اعتبارات غنية . وهي تشكل قسماً من مادة العبادة لدى جميع فروع الكنيسة المسيحية في العالم اليوم . كما انها تساعد على العبادة الفردية والتأملات الروحية الشخصية . ومن المؤكد ان المسيحيين القدماء كانوا يترنمون « بتسابيح واغاني روحية » (كولوسي ٣ : ١٦) ومنذ ذلك الزمن كانت المزامير مصدر وحي والهام لناظمي الترانيم الروحية خلال العصور المسيحية . كما ان بعضها قد تم التعبير عنها بصورة شعرية حديثة ، اعلق في الذهن واقرب الى الادراك فترنيمة « يا عوننا في ما مضى » هي ملخص المزمور التسعين ، كما ان هنالك عشرات المزامير المنظومة شعراً بقليل من التحوير .

ان اهمية وجود سفر المزامير في الكتاب المقدس تظهر بوضوح عندما نعتبره كتاب العبادة ، وعندما ننظر الى عباداته كأداة

استخدمهـا خدام الله في مخاطبتهم اياه . فلا يستغرب احـد اذاً بان يعرف ان هذه المنظومات الشعرية نظمت لهذه الغـاية نفسها . فبعضها استخدم في العبادات المتعلقة بالهيكل والبعض الآخر كان يستخدم في عبـادات الجامع الـتي كانت بدون مذابح وبدون قرابين وتقدمات حيوانيـة . واما الاشارات المختصة بعبـادات العبرانيين فلا ينبغي ان تمنع تحويلهـا الى عبادات مسيحية في اي مكان وزمان . فالتعبـير القديم «بيت الرب» الذي يشـير الى الهيكل في اورشليم قـد يطبق على اي بيت للرب في اي زمـان ومكان حيث يعبد الله بالروح والحق .

ان المسيحية ليست عبارة عن نظام عقائدي ، ولا دستور من شرائع السلوك ، انمـا هي خدمة تقدم لله استجابة لمحبته واطاعة لمشيئته . فالايمان والثقة هما الينبوعان الفياضان لهذه الخدمة . اما السلوك في الحيـاة اليومية فواجب وحق عندما يعكس شيئـاً من وجود الله ومحبته وحقه . انه البرهان القاطع للاخلاص في الدين . انمـا تجاوب المؤمن الشامل مع الله الذي فداه ينبغي ان يظهر في عبادته اياه .

تخبرنا التوراة عن دعوة الله لشعبه ، وكيف ارسل لهم اخيراً ابنه الوحيد والعبادة هي جوابنا على هذه الدعوة وعلى ما فعله

الله من اجلنا . وعلينا ان نخدمه في حياتنا وعبادتنا وفي تمجيدنا اياه وشركتنا معه ، وفي التجائنا اليه في الضيق ووقت الحاجة . وهذه كلها نجد مادتها الخام في المزامير حيث تتجاوب اصداء اصواتنا واصداء اشواقنا الروحية ، ولا نستطيع ان نجد لغة للتعبير عنها ... ففي المزامير نجد حاجتنا الضرورية . وكما يقودنا احدهم بالصلاة ، وكما يقودنا جوق المرنمين في الترنيم هكذا يقود صاحب المزامير افكارنا في الصلاة والتسبيح ، ويرينا كيف نستطيع ان نتحدث معه كما يتحدث الله معنا بواسطة الانبياء والاناجيل والاقسام الاخرى من الكتاب المقدس ، وكيف انه لا يزال يحدثنا بواسطة كتابه المقدس .

ان اولئك القديسين الذين نظموا المزامير وتركوا لنا هذا الإرث الثمين يمكنهم ان يساعدونا كثيراً . فهم يعلموننا كيف نصلي كما علم السيد المسيح تلاميذه . كذلك يحملوننا الى عالم اوسع من الاختبارات الروحية التي لم نحلم بها من قبل ، كما تتطهر بصيرتنا الداخلية فنصير نتقبل الحقائق الروحية بصورة افضل . والكلمات التي يضعونها على السنتنا تصبح جزءاً من واقعنا نحن كما نتعلم بان نرفع ابصارنا الى العلاء من حيث يأتي عوننا ، معونتنا من عند الرب صانع السموات والارض .

ومن خصائص سفر المزامير انه يبني بحاجاتنا الفردية والجماعية فكل منا ذو شخصية فريدة ، وكل منا سيقدم حساباً عما فعلته يداه . وفي الوقت ذاته نحن اعضاء في جسم المجتمع ولا تكتمل شخصياتنا الا فيه . لذلك وجب ان تكون عبادتنا شخصية وجماعية تعاونية . «اما انا فمسكين وبائس . الرب يهتم بي» (مز ٧٠ : ١٧) «ونحن شعب مرعاه وغنم يده» (مز ٩٥ : ٧) .

هنا يتبادر الى خاطرنا هذا السؤال : اذا كان كتاب المزامير عاماً وذا اهمية ، فلماذا نكتب عنه ونؤلف الدراسات المفصلة في اقسامه ؟ ان الرسول بولس يوحي لنا الجواب على هذا السؤال عندما يقول : «أرنم بالروح . . . وأرنم بالمعرفة ايضاً» فكلما ازدادت معرفتنا وكلما زاد فهمنا لهذا الكتاب وكلما اطلعنا على تاريخه ومعانيه كلما زادت قيمته كواسطة للنعمة .

وهنالك سبب آخر ، يختلف قليلاً في نوعه ، تفرضه علينا الامانة في التصريح الا وهو وجود بعض الامور العويصة من جهة ادبية . ففي بعض اقسام المزامير نجد اموراً لا ندركها . فعندما يتفوه المرنم بعبارات ثأرية نابية ، ويريد ان يصب جام غضبه على اعدائه تبرز مشكلات ادبية عويصة . لان مثل هذا لا يتفق مع تعليم السيد المسيح عن المسامحة وهو الذي علمنا بان نحب

اعداءنا ونبارك لاعنينا ونحسن الى من يسيء الينا ويبغضنا .

ان هذه الامور التي تقلق راحة الضمير ينبغي ان لا يغفل عنها . وما نريد ان نقدره ينبغي ان يكون موضوع اهتمامنا وفهمنا . ان هذا الكتاب الصغير الذي سميناه :

المزامير

او تسابيح الحمد في الكنيسة المسيحية

انما هو محاولة لمساعدة مطالعي المزامير ليتفهموا جيداً ما هي المزامير ، وكيف تحدرت ووصلت الى الكنيسة المسيحية من العبرانيين القدماء . كما انها تساعد على حلّ بعض المشاكل التي تحصل عندما نتخذ المزامير التي كانت للعبرانيين القدماء لنستخدمها في العبادات الروحية في الكنيسة المسيحية .

الفصل الاول

ما هو كتاب المزامير ؟



اذا كنا نود ان نقدر كتاب المزامير حق قدره ، ونقف على ما يمكن ان يعنيه للمسيحي المؤمن ، علينا ان ننظر فيه من عدة نواحٍ . فمن جهة نجد بانه عبارة عن مجموعة من مختارات شعرية دينية للعبرانيين القدماء . ومن ناحية اخرى نجد تلك المختارات سجلاً حافلاً من الصلوات والتسابيح كان يرفعها الساجدون لله قديماً شهادة لايمانهم . واذا دققنا النظر اكثر نلاحظ بان اعداداً من تلك المزامير كانت قد نسقت ونظمت لتستخدم في العبادة الفردية والجماعية .

فهي كتاب تسابيح وكتاب صلوات في آن واحد . واخيراً

واهم مما ذكر نجد بان هذا الكتاب القديم يمكن ان نستخدمه اليوم في اقترابنا من الله بالعبادة ، لانه يفصح بلغة رائعة عن اختبار ديني نستطيع ان نشاطرهم اياه بلا لوم ولا تثريب .

المزامير مجموعة شعرية مختارة

ان كتاب المزامير ، في الدرجة الاولى ، مختارات شعرية دينية للعبرانيين القدماء . وهذه المختارات كما نعرفها حالياً تختلف عن الشعر العادي من عدة وجوه ، لانها متحدرة الينا من شعب يختلف بجنسيته عنا ، وقد عاش في عالم قديم يختلف عن عالمنا . ومع ذلك فتلك المختارات تشارك الاشعار الأخرى بعض خصائصها العامة . وهذا هو السر الذي يجعل المزامير صالحة لان تنقل الى لغات اخرى دون ان تخسر جمالها وقوة خيالها .

فالشعر ابتدأ غنائياً . وهذا ترك أثره في جميع ضروب الشعر المكتوب وانواع بحوره . فهو منظوم بعبارات قصيرة منسقة يستطيع المغني ان يتغنى بها دفعة واحدة بدون ان يأخذ نفساً . كما يحتفظ بشيء من الوقع الموسيقي وحركات الرقص المنسجمة . وقد نظمت تلك السطور بمقاطع جذابة للانتباه لتساعد على أداء رسالة الشاعر . واما الكلمات فمنتقاة مع مراعاة الرنة الموسيقية والجرس في اغلب الاحيان .

فلغــة الشعر اذن ليست كلغة التخاطب العــادية ، وهذا امر ينبغي ان نتحققه ونسلم بــه اذا كنا نريد ان نتفهمهــا جيــداً . والشاعر هو من يحملنــا على رؤية ما يراه هو ، وعــلى الشعور كما يشعر هو بنفسه . فيختار كلماتــه وينظمها بصورة تجذب ابصارنا وتوقظ فينا الذاكرة ، وتنبه فينا المشاعر . انــه يقترح ما يقرب الى فهمنــا ويتعذر عليه ان يصيغ ذلك بلغة عادية . فاللغــة التي يستخدمها هي نوع رائع من البيان الساحر .

والشعر يتخــذ اشكالاً متنوعة لدى مختلف الشعوب ، وفي مختلف العصور والازمنة . وللشعر العبراني ميزات خاصة نلحظها في الاقسام الشعرية الواردة في التوراة . ومن ابرز تلك الخصائص ما يعرف بالسجع المفصل . (Parallelism) وهذا يعني في ابسط تعريفه ايراد الفكرة الواحــدة في فاصلة اولى ثم ترديدها في الفــاصلة الثانية . فيــأتي عجز العبارة صدى لصدرها وهو صدى الفكرة وليس صدى الرنة الموسيقية كما هي الحال في الشعر الغنائي . وما لم يسمع الشاعر صدى الروي في الفــاصلة الثانية ، لا ينتقــل الى الفكر الآخر كما نرى في المثال التالي :

هــلم نرنم للرب
نهتف لصخرة خلاصنا (مز ٩٥ : ١) .

فكل شطر من شطري الفاصلة المسجوعة يعبر عن نفس المعنى ، اذ ان العبرانيين اعتادوا ان يدعوا الههم صخرة خلاصهم . فالسجعة الثانية توكيد للفكرة الواردة في الأولى بالتكرار اللفظي . ثم ان الشاعر يجلي معنى الفاصلة الأولى باطالة الوقف بعد تلاوتها ، ثم باعادة التعبير عنها بصورة ثانية .

ان فناً كهذا يعير نفسه لتغييرات كثيرة من انواع السجع . فنجد الكلمات الرئيسية في الفاصلة الاولى لا تتكرر لفظاً بالمعنى الحرفي ، بل تبقى الفكرة عالقة في ذهن الشاعر وفي عقول السامعين :

لان الرب اله عظيم
ملك كبير على كل الآلهة (مز ٩٥ : ٣) .

وفي المزمور ٩٥ : ٥ نجد مثلاً لعبارة مسجوعة ينتهي شطراها بتوازن في اولها وآخرها ، ولا مناص من اتخاذ الجزئين معاً لكي يتم المعنى المقصود :

الذي له البحر وهو صنعه
ويداه سبكتا اليابسة (مز ٩٥ : ٥) .

فالبحر واليابسة وكامل الكرة الارضية كلها عمل الله ، وهي له

لانه هو صانعها من العدم . كذلك في المزمور (٤٢ : ٨) عندما يذكر شيئاً عن النهار في الفاصلة الاولى يعود فيقابلهـا في الفاصلة الثانية بما يناسب الليل :

بالنهار يوصي الرب رحمته
وبالليـل تسبيحه عنـدي (مز ٤٢ : ٨) .

وهكذا وبطرق متعـددة يتردد صدى الفكرة الواردة في الفاصلة الاولى في الفقرات التي تليها . وفي المزمور ٢٩ نعثر على ما يدهشنا من الوصف الثلاثي المكرر لصوت الرب (مز ٢٩ : ٣-٥) مشبهاً اياه بقصف الرعـد سبع مرات في هذا المزمور . فيجدر بنـا ان نقابـله بالمزمور (١٨ : ١٣) ارعد الرب من السموات والعلي أعطى صوته برداً وجمر نار .

كذلك التشبيه بالمقابـلة يشكل انواعاً لطيفـة من التوازن المذكور :

كما يشتاق الايل الى جداول المياه
هكذا تشتاق نفسي اليك يا الله (مز ٤٢ : ١)

وقد يأتي هذا التوازن بمقابلة الاضداد :

بالغـــداة يزهو فيزول
عنـد المساء يجز فييبس (مز ٩٠ : ٦)

وفي كثير من الاحيـان تقرر الفقرة الثـانية من السجعـة ما يترتب على الفقرة الاولى كما في قول المرنم :

انتظارا انتظرت الرب
فمال اليّ وسمع صراخي (مز ٤٠ : ١) .

فعندما يألف القاريء خصائص السجع وفواصله المتوازنة يجد تنوعاً كثيراً من تلك الاسجاع التي أضفت على الشعر الغنائي رونقاً وروعة وجمالاً . وفوق ذلك كله فهو يوفر عـلى نفسه التقصير في ادراك مقاصد الشاعر كما قد يحصل فيما لو اكتفى بالمعنى الحرفي .

وهنالك ملاحظة أخرى ينبغي ان تراعى وهي : ان كثيراً من تلك القصائد مؤلفة من ادوار خاصة ينظمها الشاعر مقطوعة ادبية ويجمع فيهـا العناصر المختلفة للرسالة التي يريـد أداءها . والمزمور الاول خير مثال على هذا . فالعددان الأول والثـاني يعربان عن الطوبى المخصصة بالرجل الـذي لم يسلـك في مشورة الاشرار وفي طريق الخطـاة لم يقف وفي مجلس المستهزئـين لم يجلس . . . وفي العددين الثالث والرابع مقابـلة بين اختباره في الحيـاة واختبار

اولئـــك الاشرار الذين هم كالعصافـة التي تذريهـــا الريح ...
والعددان الاخيران يعلنـــان بان لكل من الابرار والاشرار نهـاية
مختلفة «لان الرب يعلم طريق الابرار اما طريق الاشرار فتهلك».

واحياناً كثيرة يؤتى بفاصل بين الادوار ، اشبه شيء بالقرار او
اللازمة ، او بما كانوا يدعونه «سلاه». وسيأتي الكلام عن ذلك
بالتفصيل . ففـي المزمور ٤٦ نجد ثلاثـة ادوار تفصلها «سلاه»
بعـد الدور الثالث ولازمة في العـددين ٧ و ١١ . والمزموران
٤٢ و ٤٣ يؤلفـان مقطوعة شعرية واحدة ، ولسبب مجهول قسمها
المحررون والكتَّاب الى جزئـين . وبامكاننا نحن ان نميِّز ثلاثـة
ادوار متساوية في الطول ومنتهية باللازمة ذاتها .

غير ان العدد الكثير من تلك المزامير لا يظهر فيهـا الشكل
الشعري المنتظم . فبعضها غير مقسم الى ادوار محددة كما يختلف
بعضها الآخر في طول فواصلها وادوارها . ونرى بان عدد الاشطر
وعدد الكلمات الرئيسيـــة في كل شطر لا يتبع فيـــه نسق معين
بدقة وإحكام . والظاهر ان الشعراء احتفظوا بحقوقهم وبحريتهم
الكاملة في اختيـــار الشكل الذي نظموا فيـــه اشعارهم فجاءت
متباينـــة ومتنوعة حتى ندر وجود مزمورين متشابهـين بتركيبهما
الادبي تمام التشابه .

وبجانب الاسلوب المسجع نجـد ظاهرة ادبيـة هامة في نظم المزامير هي قوة الخيـال المستوحى من الحيـاة اليوميـة لتوضيح الفكرة المقصودة . فتـلال فلسطين الصخرية كانت دائمـاً نصب عيون النـاظمين . فالمزمور ١٢١ : ١ و ١٢٥ : ٢ يوضحان هـذه النقطة كفاية :

ارفع عينيَّ الى الجبال
من حيث يأتي عوني (مز ١٢١ : ١)

اورشليم الجبال حولها
والرب حول شعبه ـ من الآن والى الدهر
(مز ١٢٥ : ٢)

ونجد في المزمور ٧١ : ٣ دليلاً آخر :

كن لي صخرة ملجأ ادخله دائماً
اموت بخلاصي لانك صخرتي وحصني (مز ٧١ : ٣)

ثم يلمح الى الاسوار المحيطـة بالمدينة كالقـلاع الجبـارة . وهنـالك الاودية الخضراء المكسوة بالحنطـة والمنحدرات الـتي تسرح فيهـا المواشي وقطعان الغنم (مز ٦٥ : ١٣) . والى الجهة الغربية يقع البحر الكبير الذي تتـلألأ صفحته تحت نور الشمس

المنعكسة على وجهه او تتكسر على شطئانــه الامواج المزبدة . (مز ١٠٤ : ٢٥ – ٢٦) . وعندما يقصف الرعـد فهو كصوت الرب الذي يجعـل الارض تتزلزل من صوت الصارخ (مز ٢٩) . وفي حر الصيف وشـدة القيظ تحمل الرياح الغبـار من السبل التي تطأها الماشية من انسان وحيوان ، والريح تذري العصافـة حاملة اياها من البيـادر وناشرة اياهـا في الاجـواء (مز ١ : ٤) . والغدير المستكن في فصل الربيع اشبه بماء الحياة (مز ٢٣ : ٢) . وعندما يرخي الليـل سدوله تظهر النجوم فترصع الفلـك وتزيده مجداً وجمالاً (مز ٨ : ١ – ٤) .

وفي الطرق الجبليـة ومسالكها المتشعبة مشى الناس متنقلـين من قرية الى قرية بصورة غـير منقطعة ، واحيانـاً كثيرة كانوا عرضة لهجمات اللصوص وقطاع الطرق (مز ٢٧ : ١١) وكثيراً ما سمع القضاة وهم في كراسي الحكم الناس يشتكون اليهم ويقصون على مسامعهم كيفية الاعتداء عليهم (مز ٥٨ : ١١) . كذلك نرى الراعي بعصـاه وعكازه (مز ٢٣ : ١ و ٤) . والصيـاد وشباكه (مز ٣٥ : ٧ – ٨) . والحصاد عائـداً من حقـله (مز ١٢٦ : ٦) . ورئيس القوم في خيمتـه يقوم بواجب الضيافـة تجاه احد الزائرين (مز ٢٣ : ٦) . والموسيقي بعوده وربابه (مز ٥٧

: ٨) . والعروس الخارج من حجلته (مز ١٩ : ٥) . والجند يرفعون الرايات وهم خارجون للقتال بقسيّهم العاقة وسيوفهم وحرابهم وجميع ادوات الحرب وبالخيل والمركبات لكي يدبوا الرعب في صفوف الاعداء (مز ٢٠ : ٥ و ٧ و ٧٦ : ٣) .

وتسير المواكب في الشوارع يتقدمهم المغنون ومن وراء ضاربو الاوتار وفي الوسط فتيات ضاربات الدفوف ووجهتهم الجبل المقدس ومداخل الهيكل العظيم (٢٤ : ٧ — ١٠ و ٦٨ : ٢٤ — ٢٥) . ويحيط الكهنة بالمذبح حيث يتصاعد دخان المحرقات بينما يقف الشعب في باحة الهيكل يرقبون (مز ١٨ : ٢٧) . وترتفع اصوات الترنيم من الجوق فتردد الجماعة آيات الحمد والتسبيح وترتفع اصواتها المشتركة بالصلاة والابتهال (مز ١١٨ : ١ — ٤) . وفي البيوت يضيئون السرج في المساء (مز ١٨ : ٢٨) . والامهات يرضعن اطفالهن (مز ٨ : ٢) .

ويعثر احدهم فيسقط وينسكب الماء العزيز على الارض (مز ٢٢ : ١٤) . وتنكسر الجرة وتتبعثر قطع الخزف في كل ناحية (مز ٢ : ٩) . وفي الظلمة يخرج الاشرار فيمدون اقواسهم ويفوقون السهم في الوتر ليرموا مستقيمي القلوب (مز ١١ : ٢) . والمريض يتقلب على فراشه حتى الفجر فتيبس قوته ويلتصق لسانه

بحنكه والى تراب الموت يوضع (مز ٢٢ : ١٤ - ١٥) .

لقد عمد الشاعر المرنم الى امثال هذه الصور من الحياة المألوفة فدبجها يراعه ، معبراً عن شعوره واحساسه ، وهادفاً الى الافصاح عن فكرة معينة يريد أداءها فيصرخ الى الله في حزنه قائلاً :

كالماء انسكبت . انفصلت كل عظامي
صار قلبي كالشمع . وقد ذاب في وسط امعائي
يبست مثل شقفة قوتي ولصق لساني بحنكي
والى تراب الموت تضعني (مز ٢٢ : ١٤ - ١٥) .

ان فشله هو الذي يحمله على التفكير بانه قد غرق في حمأة عميقة وليس له مقر :

غرقت في حمأة عميقة وليس مقر
دخلت الى اعماق المياه والسيل غمرني (مز ٦٩ : ٢) .

وهو يصور الحماية بالله والنجاة به بصورة خيالية رائعة عندما يقول :

لانه يخبئني في مظلته في يوم الشر
يسترني بستر خيمته

على صخرة يرفعني (مز ٢٧ : ٥)

والرب لمرنم آخر هو الملجأ الوحيـد وهو عون له في الضيقـات وجد شديداً ... لذلك :

لا نخشى ولو تزحزحت الارض
ولو انقلبت الجبال الى قلب البحار (مز ٤٦ : ٢)

والبحار والتلال تبتهج كالبشر لدى مجيء الرب :

الانهار لتصفق بالاياد ي
الجبال لترنم معاً (مز ٩٨ : ٨)

وبحلول بركات الله وجوده :

تكتسي المروج غنماً
والاودية تتعطف براً
تهتف وايضاً تغني (مز ٦٥ : ١٣)

غير ان شمس الصيف المحرقة تلفح كالاعداء ما لم يكن :

الرب حافظك
الرب ظل لك عن يدك اليمنى (مز ١٢١ : ٥)

اما حياة الانسان فتزول سريعاً :

جرفتهم كسنة يكونون
بالغداة كعشب يزول
بالغداة يزهو فيزول
عند المساء يجز فييبس (مز ٩٠ : ٥ - ٦)

لقد استخدم اولئك الشعراء اللغة المجازية عندما كانوا يتحدثون عن الله . وتلك العبارات المجازية قصد بها ان تؤدي المعنى بصورة افضل من الكلام المعتاد . فذاك الساكن في السماوات يستهزيء بملوك الارض ويضحك من تآمر الملوك والرؤساء معاً . وهو يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه (مز ٢ : ٤ - ٥) . والرب من السماء يشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله (مز ١٤ : ٢) . وهو يهشم اسنان الاشرار (مز ٣ : ٧) . وعينا الرب تنظران . اجفانه تمتحن بني آدم (مز ١١ : ٤) . ويميل اذنه الى اولئك المؤمنين به ولكنه يحجب وجهه عن فاعلي الإثم وفي وصف العاصفة الوارد في (مز ١٨ : ٧ - ١٥) يصف غضب الرب بقوله « صعد دخان من انفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه » .

فهــل تعني هذه الاقوال يا ترى بان ناظمي المزامير كانوا يعتقدون حقاً بان لله جسداً كجسد الانسان ، وان له عينين ويدين ورجلين ومنخارين وفماً ؟ وعنـدما يقولون بان الله كان ساخطـاً او محتقراً او رحيماً او راضيـاً او مسروراً هل كانوا يعنون بذلك ان له عواطف شبيهة بعواطف البشر ؟ وعندما كانوا يدعونـه ملكاً او قاضياً أو راعياً او أبـاً او عندما كانوا يصورونه جندياً يشحذ سيفه ، فماذا كانوا يعنون بتلك الاوصاف يا ترى ؟

ان اول ما ينبغي ان نتذكره هو ان ذلك الكلام لم يكن نثراً ، بل شعراً منظوماً . وكان النـاظم يلوّن تلك الصور لـكي ينقل الى مخيلتنا ما اراد ان يؤديه من المعـاني . فكان يشبه قوة الله المعتنية والحافظة بالصخرة الصلدة او بالظل او بالحصن . والله في عرف المرنم شمس ومجن (مز ٨٤ : ١١) . وكما ان اورشليم والجبال حولها هكذا الرب حول شعبه من الآن والى الدهر (مز ١٢٥ : ٢) .

ان هذه الصورة الاخيرة توضح لنا بجلاء بان جميع تلك الصور وبينها الصور المنتزعة عن الحيـاة البشرية والمعبرة عن عواطف بشرية ليست الا صوراً شعرية مجازية أريدَ بها وصف الاختبارات البشرية عن الله . ويظهر بان بين الاسباب الداعيـة الى تصوير الله بتلك

اللغة المجازية هما :

اولاً : ان الله لم يره احد قط في اي وقت من الاوقات .

ثانياً : وان علاقة الله بالانسان انما هي شبيهة بعلاقة الراعي بخرافه او بعلاقة الملك برعيته او علاقة الوالد باولاده . والناس يتحدثون اليه بالصلاة كما يتحدثون الى حاكم او قاض معترفين امامه باخطائهم وممجدين صلاحه وجوده ، وملتمسين منه المساعدة وذلك بكل خشوع وخوف واحترام لا يمكن لاي ذي سلطان ارضي ان يتطلبها :

اذ أرى سمواتك عمل اصابعك
القمر والنجوم التي كونتها
فمن هو الانسان حتى تذكره
وابن آدم حتى تفتقده
ايها الرب سيدنا
ما امجد اسمك في كل الارض ! (مز ٨ : ٣ — ٤ و ٩)

يا رب الهي .. قد عظمت جداً
مجداً وجلالاً لبست
اللابس النور كثوب
الباسط السموات كشقة (مز ١٠٤ : ١ — ٢)

ان اخذت جناحي الصبح
وسكنت في اقاصي البحر
فهناك ايضاً تهديني يدك
وتمسكني يمينك (مز ١٣٩ : ٩ - ١٠) .

ان مثل هذه اللغة هي جوهر الدين وهي ملبسة بثوب شعري قشيب .

كتاب الصلاة في الكنيسة العبرية

ليس سفر المزامير مجرد مجموعة شعرية لخدمة خاصة ولكنه طبعة لكتاب صلاة وترانيم وتسابيح روحية يتضمن اشكالاً متنوعة من اساليب العبادة كما كان يمارسها العبرانيون القدماء . وقد دعي بكتاب الصلاة للهيكل الثاني اي لهيكل اورشليم المرمم بعد السبي البابلي الذي حدث (٥٥٦ - ٥٣٨ ق . م .) .

غير ان صحة هذا العنوان لا تنطبق لسببين : اولهما ان هذا الكتاب يحتوي على كثير من المقطوعات الشعرية التي لم يقصد بان تستخدم للتسبيح والترنيم مع انها تدخل تحت هذا العنوان في التوراة العبرية كما وصلت الينا . فهنالك صلوات وابتهالات

وتوسلات واعترافات وليتانيات طقسية وتأملات روحيــة تتطلب عنوانـاً اكثر احاطة واوفر شمولاً مثل « الخدمات الدينيـة » او « طرق العبادة » او ما اشبه . وثانيهما ان بعض تلك المقطوعات تحدرت الينـا من عبادات قديمـة سبقت زمن السبي ولم تكن محصورة في القدس فقط بل كانت في شيلوه ايضاً (١ صم ١ : ٣) وفي بيت ايل (عا ٥ : ٢٣ و ٧ : ١٣) . وفي اماكن اخرى .

اما المزامير الباقية كتلك التي كانت لممارسة التأملات الطويلة في ناموس الرب (مز ١١٩) فلا يمكن ان تصلح لعبادة الهيكل اطلاقاً . والظاهر من ادخال مثل هذه المزامير على الكتاب انه وضع اخيراً في شكله الحالي لاستعماله في عبـادة المجامع وليس في عبـادة الهيكل . وكانت تلك المجامع عبارة عن امكنة اجتمع فيها الناس لدرس التوراة وللعبادة غير الرسمية – اولئـك الذين لم يتمكنوا من الذهاب الى الهيكل لتقديم العبادة .

غير ان تاريخ الكثير من المزامير يعود الى الزمن الذي كان فيه الهيكل قائمـاً في اورشليم . فالاسفـار التشريعية والتاريخية في العهد القديم توضح لنا بعض الصور التي كانت تمثل خدمة الذبائح في الهيكل تؤيدها بعض التلميحات الواردة في اسفار الانبيـاء . فمرة بعد الاخرى تلمح تلك الآيات الى تسابيح الهيكل (عا ٨ :

٣) والى نصوص صلوات وتسابيح تذكرنا بالمزامير ذاتها .

فني سفر التثنية (تث ٢٦ : ١ - ١٠) وصف مفصل للعبادات والصلوات ومراسيم الاحتفال بتقديم اول ثمار الارض التي تحصلها ليضعها الكاهن امام مذبح الرب . وكان على الفلاح ان يعيد بعد الكاهن العبارات الواردة في (تث ٢٦ : ٥ - ١٠) وهي شبيهة كل الشبه بالمزمور (١٠٥) . وفي الاصحاح (٢١ : ١ - ٩) تفصيل للبراءة من دم القتيل عندما يكون القاتل مجهولاً . والمزمور ٢٦ يعالج ذات الموضوع مع ان نوع الجريمة يختلف عن السابق . ونلاحظ في كلتا الحالتين بان غسل الايدي انما جعل رمزاً للبراءة من الجريمة . وفي مكان آخر نجد بان بركة الكهنة (عد ٦ : ٢٢ - ٢٧) يقتبسها المرنم في عدد من المزامير (مز ٢٠ : ١ و ١١٨ - ٢٦ و ١٣٤ : ٣) .

كذلك نجد لصلاة حنة ام صموئيل ونذرها (١ صم ١ : ١٠ - ١١) شبهاً رائعاً في المزمور (٢٠) حيث يتعهد المرنم بان يوفي للرب نذوره قدام خائفيه . تلك النذور التي اتخذها في ايام مسكنته وذله . والحق يقال بان هنالك عدداً من الشواهد لمثل تلك النذور في كتاب المزامير مثل (مز ٥٠ : ١٤ و ٦٥ : ١ و ٦٦ : ١٣ - ١٤) . وعند تدشين الهيكل الوارد وصفه في

(١ مل ٨) يشير سليمان الى الصلوات التي تقدم امام المذبح في مختلف الحالات والتي نجد لها شبهاً مضارعاً في المزامير . يتضح لنا ذلك بجلاء بمقابلة ما ورد في (١ مل ٨ : ٣٣ – ٣٤) مع المزمور (١٠٦ : ٦) .

وفي رواية تأسيس الهيكل الثاني نقرأ بان الكهنة بلابسهم بابواق ، واللاويين بني آساف بالصنوج ، أقيموا لتسبيح الرب على ترتيب داود ملك اسرائيل ، وغنوا بالتسبيح والحمد للرب لانه صالح لان الى الابد رحمته (عز ٣ : ١٠ – ١١) . ان هذا القرار مألوف لدى جميع من يعرفون شيئاً عن المزامير لانه يرد مراراً وتكراراً . فنجده مكرراً في (مز ١١٨ : ١ – ٤) وفي (مز ١٣٦) بشكل طقسي رائع . وفي (ار ٣٣ : ١١) يخبرنا النبي ارميا ان هذا القرار كان يغنيه اولئك الذين يأتون بذبيحة الشكر الى بيت الرب .

وفي ارميا (ار ٣١ : ٦) نجد ذكراً لترانيم المصاعد التي كان يتغنى بها الحجاج وهم صاعدون الى المدينة المقدسة كما كانت العادة . « قوموا فنصعد الى صهيون الى الرب الهنا » . يقابل ذلك ما ورد في المزامير (مز ١٢٢ : ١) فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب نذهب . واشعياء النبي (اش ١ : ١١ – ١٥)

يشرك الايدي المبسوطة في الصلاة بتقديم الذبائح في الهيكل فيقول : حين تبسطون ايديكم استر عيني عنكم وان اكثرتم الصلاة لا اسمع . ويشير يوئيل مرتين الى خدمة نوح وصوم واعتكاف ، عندما يلبس الكهنة المسوح ويصلون تلك الصلوات وهي شبيهة بكلمات المزمور ٧٩ .

ولكن الآن يقول الرب ارجعوا اليّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم لانه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر . لعله يرجع ويندم فيبقي وراءه بركة تقدمة وسكيباً للرب الهكم .

اضربوا بالبوق في صهيون . قدسوا صوماً ، نادوا باعتكاف . اجمعوا الشعب قدسوا الجماعة احشدوا الشيوخ . اجمعوا الاطفال وراضعي الثدي . ليخرج العريس من مخدعه والعروس من حجلتها . ليبك الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح ويقولوا اشفق يا رب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار حتى تجعلهم الأمم مثلاً . لماذا يقولون بين الشعوب اين الههم . فيغار الرب لارضه ويرق لشعبه . ويجيب الرب ويقول لشعبه هأنذا مرسل لكم قمحاً

ومسطاراً وزيتاً لتشبعوا منها ولا اجعلكم ايضاً عاراً بين الأمم (يو ١ : ١٣ – ١٤) (و ٢ : ١٢ – ١٧) .

وفي كتاب المزامير بالذات دلائل على ان بعض تلك المزامير نظمت اولاً لتستخدم في العبادة المتعلقة بالهيكل . (فالمزمور ٢٤ : ٧ – ١٠) برهان واضح على استخدامه غناء فردياً ورداً جماعياً من جوقة المرنمين فيما كانوا يدخلون تابوت عهد الرب داخل ابواب الهيكل . وفي المزمور (٢٠) نجد ما يسهل علينا معرفة القسم الخاص برئيس الكهنة (مز ٢٠ : ١ – ٤) ، وذلك الجزء الذي كان الشعب او الجند يشتركون به (مز ٢٠ : ٥) وما كان خاصاً بالنبي او بالملك نفسه (مز ٢٠ : ٦ – ٩) .

وفي المزمور ١١٨ نجد الرد الثلاثي – الجماعة ، وبيت هارون اي الكهنة ، واولئك الذين يتقون الرب – اي الدخلاء . كذلك نجد في هذا المزمور (١١٨) عدداً من الاشارات التي كانت تستخدم في الاحتفالات الدينية ، ادمجت بالكلمة المنطوقة ، تخرج هذا المزمور بالحلة التي نراه فيها الآن . فهتاف النصر الذي يهتف به جمهور العابدين في العددين ١٥ – ١٦ يدعى بهتاف الانتصار . كذلك نجد في الشطر الثاني من العدد ٢٧ اشارة ثانية الى نظام العبادة ، وربما كانت تلك الاشارة مكتوبة على هامش البرنامج

فأدخلت في صلب النص فيما بعد حتى اذا ادخلناها الان بين قوسين لم يتأثر معنى المزمور ابداً .

اذن فالمزمور يفهم بوضوح اكثر عندما نعلم أنه نظم في الأصل ليكون جزءاً من المراسيم المتعلقة بعبادة الهيكل . ففي سفر العدد (عد ١٥ : ٣ و ٨) نص صريح على ان وفاء النذور رافقته ذبائح سلامة للرب او ذبائح وفاء لنذر . يقابل ذلك ما ورد في سفر المزامير (مز ٦٦ : ١٣ - ١٥) من العبارات التي تفوّه بها احد القادمين الى الهيكل ليوفي نذوره : ادخل الى بيتك بمحرقات اوفيك نذوري . . . مصرحاً امام الجميع بان الله منحه النجاة التي طلبها بالصلاة . وفي مزمور آخر يرفع المؤمن بيده كأس الخلاص فيما هو يقوم بوفاء نذره ، وقد سميت كذلك لانها كانت الكأس التي يشربونها ويسكبونها علامة شكر لله الذي نجاهم (مز ١١٦ : ١٣ - ١٤) . لنقابل هذا مع (عد ١٥ : ٥) .

اما الطقوس المفصلة في (عد ٩ : ١٧ - ١٨) عن ذبيحة الخطية فتفسير للآية القائلة : طهرني بالزوفا فاطهر اغسلني فابيض اكثر من الثلج (مز ٥١ : ٧) . وفي المزمور (٨١ : ٢ - ٣) نسمع انغام الدفوف والعود والرباب في عيد رأس السنة . كذلك

التصفيق بالايادي (٢ مل ١١ : ١٢) وهتـاف الابتهـاج وصوت البوق جميعهـا نسمعهـا ايضاً في (مز ٤٧) .... وجميع آلات الطرب والموسيقى مـن الصور الى الرباب والعود والـدف والاوتار والصنوج والمزمار كلها تدوي بهتاف التسبيح للرب ... هللويا .. في ختام كتاب المزامير وفي المزمور (١٥٠) .

ان اعداداً وافرة من المزامـير تحدرت الينـا من خدمـات العبادة الطقسية التي كانت تمارس في الهيكل الاورشليمي . وفيما بعد تحول بعض منهـا وتكيّف ليصلح للعبـادة الجمهورية البسيطة المختصة بالمجامع . فالهيكل بكهنته التقليديين وبذبائحه الحيوانية وطقوسه وشعائره الدينيـة جميعها انقرضت ، ولم يبق منها الا تلك الحقيقة الروحية التي انعكست عن تلك العبادات ونقلت بالتسلسل حتى صارت صالحة لعبـادة الله الواحد مدى الاجيـال وعـلى مر الحقب .

ولا ينبغي ان يفوتنا ذكر هذه الحقيقة وهي انه ليس كامل اعداد المزامير ، قد احصي وجمع كما سنرى فيما بعد فان بعضها قد ادخل في الاقسام التاريخيـة من الاسفـار المقدسة وفي كتابات الانبيـاء . زد على ذلك ان ناظمي تلـك المقطوعات الشعرية من المزامير لم ينقطعوا عن النظم حتى بعد جمعها في كتاب واحد ، فلقد

استمر الكثيرون منهم يقرضون المزامير والترانيم والتسابيح الروحية . وقد وصلت الينا مجموعة منها يعود تاريخها الى قبيل الميلاد المسيحي ، وسماها بعضهم باسم «مزامير سليمان» لانه ورد في (١ مل ٤ : ٣٢) بان سليمان الملك نظم عدداً من الترانيم على نسق المزامير الكتابية في التوراة ، ولكنها تعكس آراء وعقائد متأخرة كعقيدة القيامة من الموت ، فيقول المزمور الثالث من مزامير سليمان :

اما متقو الرب فسيقومون للحياة الابدية
وتكون حياتهم في ظل الرب
ولا يكون لها انتهاء .

وفي الاصحاحين الاولين من بشارة القديس لوقا نجد ثلاث تسابيح تشبه بفحواها مزامير العهد القديم ، وهذه التسابيح هي نشيد زكريا ، ونشيد العذراء ، وانشودة السلام التي رتلتها اجواق الملائكة . ومما يجدر ملاحظته هي ان تلك الاناشيد - نشيد زكريا (لو ١ : ١٤ - ١٧) ونشيد العذراء (لو ١ : ٣٢ - ٣٣ و ٣٥) ونشيد الجوقة السماوية (لو ٢ : ١٤) جميعها جاءت بشكل مقطوعات شعرية .

ثم ان المخطوطات التي عثر عليها مؤخراً قرب البحر الميت تؤلف مكتبة لطائفة يهودية عاشت في فلسطين زمن السيد المسيح ووجدت بينها تسابيح شكر وتمجيد تذكرنا بالمزامير الكتابية. لم تكن تلك المقطوعات تسابيح للعبادة الجمهورية ، ولكنها كما يظهر كانت صلوات افرادية واعترافات شخصية بالايمان الشخصي. واما لغتها فكانت اقرب الى النثر منها الى الشعر. وعلى الجملة فهي تعكس لنا حياة ايمان وورع وجماعة نشأت على الكتاب المقدس وتغذت منه ، وهذا ما نتحققه من المقطوعة التالية :

احمدك يا الهي لانك صنعت عجائب من التراب
وبقالب واحد من الطين أريتنا قوتك
وان كنت اسبحك فمن انا ؟
لانك انت الذي اعطيتني ان اعرف مشورتك
الصحيحة وافهم اعمالك العجيبة
ووضعت اعترافاً في فمي وتسبيحة على لساني
وخطاباً معدّاً لمسكن الهتاف العالي
لذلك فاني اترنم بمراحمك
واتأمل بقدرتك النهار بطوله
وابارك اسمك دوماً
واعلن مجدك امام بني البشر

وبوفرة صلاحك تبتهج نفسي
لاني عالم بان في فيك الحق ، وفي يدك البر
وفي افكارك كل المعرفة
وفي قدرتك كل القدرة
ولك كل المجد ....

(مقتبسة عن تسابيح الشكر من مخطوطات قمران)

الفصل الثاني

على ماذا يحتوي كتاب المزامير ؟



على المسيحي ان يطلع على كتاب المزامير اذا هو اراد الاستفادة منه ككتاب ديني تعبدي . وهذا القول يعني اكثر من مجرد معرفة عامة لبعض المزامير المألوفة والمستحبة لديه . والمعلوم ان بعض تلك المزامير اصبح قبلة انظار الكثيرين واحب الفصول الكتابية اليهم لانها تعبر بالكلام عما يجول بخاطرهم وما هو قريب من معتقدهم ولا يتمكنون من التعبير عنه بالقول . غير ان الكثير من الفصول الأخرى تصبح غنية بمعناها ومغزاها بعد بذل الجهد في محاولة الوقوف على حقيقتها . ولنعلم ان الاجتهاد في درس هذا السفر الجليل أمرٌ محمود ومشكور وذو بال .

اننا مسوقون بان نسأل مثل هذه الاسئلة واحياناً كثيرة :
لماذا يختلف هذا المزمور بمادته وروحه عما سبقه او لحقه من المزامير الأخرى ؟ ولماذا نجد هذا الانتقال المفاجيء في المزمور الواحد كما هي الحال في المزمور (١٩) ؟ وهل هنالك اسباب لمجيء بعض المزامير مرتبة بنظام خاص ؟ وما سبب اختيار تلك المجموعة من المزامير (مز ١٢٠ – ١٣٤) ؟ ولماذا وضع لبعضها عناوين خاصة كالمزمور ٨٩ ؟ وماذا يوحي لنا موضوع ذلك المزمور « قصيدة لايثان الازراحي » ؟ ولماذا خلت اكثر المزامير من مثل تلك المقدمات ؟ ولماذا دعي بعضها بمزامير داود ولم يدعَ البعض الآخر كذلك ؟

ان بعض هذه الاسئلة تظهر بانها من اختصاص علماء التوراة ولا سيما اولئك المتخصصون منهم بدراسة هذا السفر . فهؤلاء يحاولون معرفة تاريخ وتطور تلك المزامير اكثر من عامة الناس الذين يحتاجون الى مجرد ارشاد في كيفية استعمال الكتاب المقدس دينياً . وهمنا هنا ان نشير الى بعض المبادي‌ء الاولية التي ينبغي ان يراعيها كل من اراد ان يطالع كتاب المزامير بتعقل .

ترتيب المزامير

يتألف كتاب المزامير من مائة وخمسين (١٥٠) مزموراً مقسمة الى خمسة اسفار مثل اسفار موسى الخمسة . ومما هو جدير بالملاحظة هو ان هذه الكتب غير منقسمة بالتساوي من حيث الحجم كما نتوقع لاول وهلة من انقسامها الى عدد مألوف كالعدد ال ١٥٠ الذي مرّ معنا . وكل جزء من تلك الاجزاء ، باستثناء الجزء الاخير ، ينتهي بتسبيحة واحدة . غير ان تلك التسبيحات لم تكن في الأصل جزءاً من المزامير التي الحقت بها مؤخراً ، ولكنها كتبت بيد جامعي المزامير الذين قسموا تلك المجموعة المختارة الى خمسة كتب او اسفار .

اما الجزء الخامس فلم يكن بحاجة الى تسبيحة ختامية لان المزمور ال ١٥٠ الذي يختتم به الكتاب هو نفسه تسبيحة عظيمة . ثم ان هنالك ملاحظة اضافية واردة في المزمور ٧٢ : ٢٠ في خاتمة الكتاب الثاني تقول : تمت صلوات داود بن يسّى .

ان هذه الشواهد على الرغم من تصرف المحررين تعكس لنا حقيقة أخرى جديرة بالاعتبار ، وهي ان اولئك الكتّاب الذين جمعوا تلك المزامير ونسقوها جاعلين عددها ١٥٠ مزموراً ، لا شك انهم

اختاروها من مجموعة كبرى كانت في متناول ايديهم ، وانهم حددوا عددها جاعلينه ١٥٠ مزموراً – وهو عدد مألوف وسهل للحفظ . اما نسخة التوراة اليونانيـة فتزيد مزموراً آخر وترقمه بالرقم ١٥١ وتقول بانـه مزمور اضافي . ثم ان هنالك مزامير عديدة أخرى ادخلها المحررون في اسفار الانبياء حيثما ظنوا بانها تتناسب مع النص .

فالاصحاح ٣ من سفر حبقوق لا يشبـه المزمورين ١٨ و ١٩ بمادته فحسب ولكن بموضوعه وخاتمته ، مما يبرهن لنـا بانه كان يوماً فصلاً من مجموعة من المزامير وقسماً من كتاب . كذلك كتابات حزقيا في (اش ٣٨ : ٩ – ٢٠) تذكرنا بصلاة الرجل المريض الواردة في الاصحاح السادس من المزامير . ولهـذه الكتابة موضوع كما ان لها خاتمـة تظهر بانها كانت تستخدم في عبادة الهيكل . كذلك نجد عدداً من تلك المزامير مبثوثـة في سفر التكوين من الكتاب المقدس وفي امكنة اخرى مثـل (خر ١٥ وتث ٣٢ و ١ صم ٢ و ٢ صم ٢٢ واش ١٢ ويو ٢) . واما كتاب مراثي ارميا فكتاب مزامير قائم بنفسه وذلك لا يقبل الجدل .

ان احد تلـك المزامير الاضافية الوارد نصه في (١ أخ ١٦)

يبين لنا كيف ان المزامير او بعض اجزاء منها كانت قد جمعت بواسطة المحررين . ان هذا المزمور يتألف من (مز ١٠٥: ١-١٥) يتبعها المزمور ٩٦ من عبارات الافتتاح والخاتمة في المزمور ١٠٦ .. وفي كتاب المزامير نجد كذلك بان بعض اقسامها جمعت من مزامير اخرى ، او من اجزاء مختارة كانت مجلدة معاً . فالجزء الاول من المزمور ١٠٨ مأخوذ من المزمور ٥٧ ومن القسم الثاني من المزمور ال (٦٠) . والمزمور ٧٠ يظهر في خاتمة ال ٤٠ . وكذلك المزموران ١٤ و ٥٣ ، الا انه في المزمور الأخير استبدلت كلمة « الرب » بكلمة « الله » مع وجود بعض الاختلافات البسيطة .

وبعبارة أخرى نجد ان المزامير وعددها ١٥٠ مزموراً كانت قد نظمت ونسقت من مجموعة قديمة كانت في متناول المحررين الذين وقفوا على جمعها في آخر مرة . فالمزامير ١٩ و ٢٤ و ٢٧ و ٤٠ وغيرها جاءت نتيجة جمع اشعار مختلفة قام بها المحررون . والمزموران ٤٢ و ٤٣ يؤلفان قصيدة واحدة قسمت الى شطرين..

ان الانتباه الى هذه الحقيقة البسيطة يساعدنا غالباً على تتبع افكار الشاعر في اي مزمور خاص . فالمزمور ١٩ يتحدث في جزئه الاول عن اعلان الله ذاته بواسطة السماوات والفلك

وعجائب الكون . وفي الجزء الثاني يتكلم عن الكتاب المقدس ويعلن الله بطريقة مختلفة . ان مثل هذا التشابه يظهر لنا السبب الذي دعا الى ادماج مزمورين او أكثر معاً حسبما ورد في الشواهد التي ذكرناها .

جمع المزامير

ان تقسيم كتاب المزامير في شكله الحالي الى خمسة اجزاء يشبه الى حد بعيد تقسيم كتب الترنيم الحديثة الى موضوعات مختلفة ترتبها اللجان المختصة وتنسقها بحسب مادتها وروحها وتوافقها . ففي مثل هذه الحالة تجمع المواد من كتب قديمة وحديثة ، ومن مصادر مختلفة ومجموعات متفرقة . وكثيراً ما تسجل اسماء الناظمين وتاريخ نظمهم تلك الترانيم وواضعي الحانها في المجموعة الجديدة كما يسجلون اسماء الكتب التي جمعت منها . فاذا نحن دققنا في محتويات الاسفار الخمسة التي تؤلف كتاب المزامير نستطيع ان نستخلص ولو شيئاً زهيداً عن المصادر التي جمعت منها .

فاول شيء نلاحظه هو ان هذه المزامير وضعت بشكل موضوعات خاصة تميزت بوحدة مادتها او تشابهت بعناوينها . ففي القسم الاول نجد بان جميع المزامير ما عدا المزمور الاول والثاني

والثالث والعشرين جميعهـا مسجلة لداود . وفي الجزئـين الثـاني والثالث اي ما يجـدد في الاصحاحات ٥١ — ٦٥ و ٦٨ — ٧٠ نجد مجموعة ثانيـة لداود تتضمن مختارات معنونـة باسم الاجواق التي كانت تغني في الهيـكل «لإمام المغنـين — كبني قورح وآساف وإيثان» . ثم ان هنالك مجموعة أخرى (مز ١٢٠ — ١٣٤) تعرف «بترانـيم المصاعد» ، كان الحجاج يتغنون بهـا وهم في طريقهم الى الهيـكل .

ونجد كذلك بعض المزامير قـد جمعت معـاً بسبب توافـق مواضيعهـا . فالمزامير ٩٣ — ٩٩ تشدد على تشبيه الرب بالملـك وبالقاضي الديان لـكل الارض . والمزموران ١٠٣ و ١٠٧ متشابهان كتسابيح شـكر وحمد . والمجموعة المؤلفة من المزامير ١١١ — ١١٣ و ١١٥ — ١١٧ و ١٤٦ — ١٥٠ جميعها تبدأ بالتهليل وتنتهي به ، او تنتهي بعبـارة : تسبيحه قائم الى الأبد . اما المجموعة التـالية (مز ١٠٠ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١١٨ و ١٣٦) فكسائر المجموعـات الأخرى الا انهـا تنتهي بعبارة : لان الى الابد رحمته . وهذه تؤلف ترانيم هي من خصائص الجزئين الثالث والرابـع .

وهذا هو احد الاسباب التي تحملنـا على الظن بان هذا القسم الأخير من كتاب المزامير (٩٠ — ١٥٠) كانت مجموعـة خاصة

منفودة ، وكانت منقسمة الى قسمين رئيسيين عندما جمعت الاقسام الخمسة كلها في كتاب واحد كما نجده اليوم .

وما لم نفترض بان الاجزاء الخمسة التي تؤلف كتاب المزامير الحالي او ٢ – ٣ و ٤ – ٥ كانت مجموعات متفرقة قبل ان توضع في شكلها الحالي يصعب علينا تفسير تكرار المزمور ال ١٤ من الجزء الاول في المزمور ٥٣ من الجزء الثاني . كذلك ترديد بعض اقسام المزامير كما سبق معنا ، ولكنها لم تتردد في نفس الجزء من الكتاب اطلاقاً .

وهنالك فارق آخر يمكننا ملاحظته من افتراضنا هذا ، اذا ما قابلنا بين المزمورين ١٤ و ٥٣ . ففي المزمور ١٤ يتكرر اسم يهوه الرب ثلاث مرات ، بينما نجد في المزمور ٥٣ تغييراً للاسم العبراني العام للاله فيدعونه « الله » . والجدير بالذكر ان الناس في مختلف العصور وفي الحلقات الدينية اعتادوا على استعمال احدى الكلمتين المعبرتين عن اسم الجلالة ، كما انه في ترجمات الكتاب المقدس اليوم يترجم ذلك الاسم العبراني مرة « يهوه » ومرة أخرى « الرب » واحياناً « الازلي » . وربما كان هذا هو السبب لوجود كلمة « الله » في الجزئين الثاني والثالث اربعة اضعاف وجود كلمة « يهوه الرب » بينما في بقية الاجزاء يرد هذا الاسم الاخير عشرين

ضعفاً اكثر من الاول .

وهذا الاقرار بانه وجدت مجموعات مختلفة من كتب المزامير بينها مجموعات صغيرة ومجموعات كبيرة ، وانهم لجأوا اليها للاستعانة بها عندما وضعوا الكتاب المقدس كما نجده حالياً بين ايدينا يفسر لنا سبب وجود مزامير اخرى موزعة في اقسام اخرى من الكتاب المقدس . ويفسر لنا ايضاً العبارة الواردة في المزمور ٧٢ : ٢٠ والقائلة : تمت صلوات داود بن يسّى مشيرة الى مختارات لداود النبي ، انتهت عند ذلك الحد ، مع ان مزامير أخرى لداود تعقبها بدون ادنى حرج وهي المزامير : (٨٦ و١٠٣ و١٠٨ - ١١٠ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٣١ و ١٣٨ - ١٤٥) . واخيراً انها تعطينا مفتاحاً لمعرفة معنى المواضيع التي تفتتح بها اكثر المزامير .

المواضيع

لم تكن تلك المواضيع جزءاً من المزامير ، ولكنها كانت ملاحظات ادخلها بعض المحررين . وان مجرد وجود عنوان للمزمور ١١٦ وعدم وجوده في المزمور ٣٤ لأمر يستحق الاهتمام . ان بعض تلك المزامير اليتيمة اي الخالية من العنوان او الموضوع

جديرة بالاعتبار وهي واردة منفردة ، وبعضها يرد في مختارات مجموعة معاً . فالمزمور الاول عبارة عن افتتاحية لكامل المجموعة . واما المزموران ١٠ و٤٣ فجزء متمم للمزامير التي سبقتها مباشرة . والمزمور ٣٣ أُضيف الى المزمور كخاتمة منطقية للعدد الأخير من المزمور ٣٢ . واما المختارات المعروفة بالايلبمة فليست موجودة الا في الجزئين ٤ و ٥ . وتمتاز بمادتها واسلوبها الادبي (انظر مزامير ٩٣ — ٩٧ و ٩٩ و ١٠٤ — ١٠٧ و ١١١ — ١١٨ و ١٣٥ — ١٣٧ و ١٤٦ — ١٥٠) .

ثم ان عدداً من الكلمات التي تتألف منها العناوين ترد متشابهة في مجموعة من المزامير كما تأتي منفردة ايضاً . وهذا برهان آخر على وجوب تقسيم كتاب المزامير الى اجزاء اخرى لبعضها موضوعات خاصة والبعض الآخر خال من الموضوع ، وقد جمعت هذه معاً كما وصلت الينا المجموعة الحالية .

١ — هنالك بعض المصطلحات مثل مزمور او تسبيحة او صلاة تميز المقطوعات التالية وتعكس لنا الغاية التي نظمت لاجلها . فالمزمور بمعناه الحرفي كان ترنيمة رغها الجوق في الهيكل بمرافقة العزف على آلات موسيقية عديدة . وكمثل الترنيمة الروحية لنا في العصر الحاضر ، هكذا كانت الترنيمة قديماً تسبيحة حمد

وتمجيد لله . واما التسبيحة فكانت ترنيمة تهليل تستخدم اثناء السير في المواكب والاحتفالات الدينية كان يتغنى بها العلمانيون وهم داخلون «ابوابه بحمد دياره بالتسبيح» . ان صورة مماثلة لهذا الموكب الاحتفالي واردة في المزمور (٦٨ : ٢٤ – ٢٧) من قدام المغنون ، من وراء ضاربو الاوتار ، في الوسط فتيات ضاربات الدفوف . ان الاثني عشر مزموراً المعنونة بمزمور ثم بتسبيحة ربما كانت تستخدم في خدمات الهيكل ، وفي مواكب الاحتفالات الدينية ايضاً .

ثم ان هنالك خمسة مزامير بعنوان صلاة جميعها من نوع واحد مثل المزمور ١٠٢ وقد يتوسع بها فتصبح صلاة رجل مسكين اذا اعيا وسكب شكواه قدام الله . ان هذه المختارات لا تدل على انها كانت تستخدم للترنيم ، وانما هي صلوات كان يقدمها الافراد في الهيكل مثل حزقيا عندما طلب رحمة الله ليخلصهم من الاشوريين (اش ٣٧ : ١٦ – ٢٠) .

وبما ان المزمور ١٤٢ يدعى صلاة كما يدعى قصيدة ايضاً تأكد معنا بان القصيدة كانت صلاة تقدم للحصول على الاستنارة الالهية . واما المذهبة كما في (مز ١٦ و ٥٦ – ٦٠) فيرجح بانها كانت عبارة عن صلاة لطلب حماية الله يرافقها نذر بتقديم ذبيحة

لله . والمثـل الوحيـد للشجوية (مز ٧) وهي عبـارة عن صلاة مرفقـة بذبيحة لكي يظهر الله شر الاشرار ويثبت الصديـق في عبادته اياه ، وفي مخاصمته اعداءه .

٢ - وما شأن اسماء الاشخاص المدونة في اول المزامير يا ترى ؟ فهنالك ثلاثـة وسبعون مزموراً منسوبـة لداود ، وخمسة وخمسون لإمام المغنين ، واثنا عشر لآساف ، واحد عشر لبني قورح . كما ان هنالك اعداداً صغيرة منسوبة لموسى ، وبعضهـا منسوب لسليمان والبعض الآخر لهيمان وايثان ولديثون . اما موسى وداود وسليمان فمعروفون في تاريخ العبرانيين القدماء ... فمن يكون الآخرون يا ترى ؟ وماذا يعني انتساب احد المزامير لداود او لبني قورح ؟

ان هذه الاسماء التي تبدأ بهـا بعض المزامير كالمواضيع المـار ذكرها ، فهي اما ان تكون مزموراً او تسبيحة او قصيـدة وجميعها تدل على انها كانت تتعلق بعبـادة الهيكل . ان جميع هذه الاسماء ذكرت في (١ اخبار ٦ و ١٥ و ١٦) ما عدا موسى وسليمان ، بمناسبة ترتيب الاحتفالات الدينية والموسيقية ، هؤلاء هم الذين اقامهم داود على يد الغنـاء في بيت الرب بعـدما استقر التـابوت ، وكانوا يخدمون امام مسكن خيمة الاجتماع بالغنـاء (١ أخ ٦ : ٣١ - ٣٢) . ان كلا من موسى وداود عرف بنظمه

للتسابيح انظر (خر ١٥ : ١ وتث ٣١ : ٢٢ و ١ مل ٤ : ٣٢) . ولم يكن داود مجرد شاعر فقط راجع (٢ صم ١ : ١٧ – ٢٧ و ٢٣ : ١ – ٧) ولكنه كان موسيقياً (١ صم ١٦ : ٢٣) .

فيرجح اذن بان عنوان بعض المزامير لداود كما لآساف ولبني قورح كان يشير أصلًا الى هذه الحقيقة ، وهي ان ذلك المزمور جاء من مجموعة تحمل اسم احد المرنمين الذين اشتهروا قديماً . ولم يكن يعني هذا بانه كان هو الناظم بالذات كما هو واضح من مزامير داود التي تتحدث عن هيكل سليمان الذي لم يكن موجوداً في زمن داود (مز ٦٥ : ٤) وعن خراب اورشليم زمن السبي كأنه قد حصل في الماضي (مز ٥١ : ١٨) .

ان التقاليد القائلة بان داود كان مرنم اسرائيل الحلو (٢ صم ٢٣ : ١) قديمة جداً . وفي ثلاثة عشر مزموراً (انظر مز ٣) زاد بعضهم شروحاً على عناوين المزامير مرجعاً اياها الى حوادث خاصة جرت في حياة داود . فموضوع المزمور ٣٤ يشير الى داود عند ما غير عقله قدام ابيمالك ، فطرده فانطلق كما هو وارد في (١ صم ٢١ : ١٠ – ١٥) مع ان اسم الملك ليس واحداً في القطعتين المشار اليهما . على ان هذه الشروح ليست قسماً من المزامير نفسها . انها ترينا بان الكتبة قديماً كعلماء التوراة في

عصرنا الحاضر حاولوا ان يعرفوا شيئاً عن الناظم واحواله بدرسهم المزامير ، وقد دوّنوا ملاحظاتهم على هامشها . ولحسن الحظ لا تتوقف قيمة المزامير الروحية على معرفة ناظميها الذين تكلم الرب بواسطتهم . لقد نظم داود بعض المزامير . وهذا لا يشَك فيه ولكن بما ان بعض تلك المزامير التي تحمل اسمه كانت مخصصة لعبادة الهيكل لا لتبيان اسم ناظمها ، لا يمكننا القول بان مجرد نسبة تلك المزامير لاسمه يعني بانه هو ناظمها فعلاً .

كذلك امام المغنين ذكر في مقدمة عدد من المزامير مساو لعدد مزامير داود . ومعنى كلمة « امام » قائد او مناظر او مرشد ، وهي مختصة بمجموعة داود كما هو وارد في (١ أَخ ١٥ : ٢١) لتنظيم الخدمة الموسيقية في الهيكل . وهي لا تدل على المفرد بل على مجموعة الآلات الموسيقية . وقد ذكرت تلك الآلات في المزمور ١٥٠ وهي الصور والرباب والعود والدف والاوتار والمزمار والصنوج ... الخ .. ونستنتج ايضاً من (١ أَخ ١٥ : ١٦ و ١٦ : ٤١ – ٤٢) بان اولئك الذين كانوا يلعبون على الآلات هم الذين تولوا القيادة في الغناء والهتاف ايضاً .

٣ – وهنالك الاشارات الموسيقية لجعل المزامير ملائمة لخدمات الهيكل . فالثانية والعشرون مزموراً هذه تأتي مرؤسة

بما يفيد انهـا كانت للجوقة بكاملها . فالمزامير (٤ و ٦ و ٥٤ و ٥٥ و ٦١ و ٦٧ و ٧٦) ينبغي ان تغنى عـلى ذوات الاوتار . وقد نعجب اذ نجد هذه المزامير السبعة فقط ممهورة بتلك الاشارة وليس كامل المجموعة ، ولكننا لا ندرك السبب . اما الاشارات الموسيقية الاخرى فيظهر بانها كانت تشير لا الى الآلات الموسيقية بل الى الانغـام او الروي الذي تبنى عليه الفواصل او الى اللحن المستعمل . فالمزمور ٢٢ مثلاً كان يرنم على لحن « ايلة الصبح » والمزمور ٥٦ عـلى « الحمامة البكماء بين الغرباء » والاصطـلاح الوارد في مقدمة المزمور ٥ يعني المزمـار عـلى « ذوات النفخ » ومقدمة المزمور ٦ على ذوات الاوتار على القرار ، وربما قصد بها اغنيـة الارض الخصبـة . والمزامير ٨ و ٨١ و ٨٤ على الجتيـة ومعناها « اغنية المعصرة » . فالاغاني الشعبية التي كانوا يترنمون بها في ايام الحصاد ، وفي وقت قطـاف الكروم كانت مألوفـة ومذكورة في اماكن اخرى من التوراة . (انظر اش ٥ : ١ و ٩ : ٣ و ١٦ : ١٠ و ٢٧ : ٢) . كما كانت بعض المزامـير تغنى على الحان شعبية مألوفة .

واما الكلمة العبرية « سلاه » التي ترد مرة او اكثر في جسم كثير من المزامير وليس في عناوينها فهي اشارة موسيقية . وهي

اشبـه بكلمة قرار او لازمة التي تكتب بين قوسين في الترانيم الحديثة او في الاغاني الشعبيـة اشارة الى وجوب اشتراك الجميع بالترنيم مع الشخص المغني او مع الجوقة بكاملها وذلك بترديد فقرة قصيرة مؤلفة من سطر او سطرين . ففي المزمورين ٣ و ٤٦ ترد كلمة « سلاه » في مكانها الطبيعي حيث تشير الى ترنيم قرار بشكل منتظم . اما في المزامير الأخرى فترد في امكنة خاصة حيث كانت تدعى الجماعة للاشتراك بهتاف الابتهال او بهتاف الحمد والشكر كما في المزامير (٢٤ : ١٠ و ٤٧ : ٤ و ٦٦ : ٨) .

٤ – منتخبات لمناسبات خاصة او لمقاصد حربية . فالمزمور ٣٠ مخصص لتدشين البيت ، فكانوا يترنمون بـه في كل سنة عند الاحتفال بذكرى تدشين الهيكل . واما المزمور ٩٢ فتسبيحة مفرزة ليوم السبت . والمزمور ١٠٠ كان يصطحب تقديم ذبائح الشكر والحمد كما نجد في (ار ٣٣ : ١١) « صوت الذين يأتون بذبيحة الشكر الى بيت الرب » . احمدوا رب الجنود لان الرب صالح لان الى الأبد رحمته . والمزموران ٣٨ و ٧٠ مقدمان للتعبير عن « ذبيحة التذكير » كما نقرأ في (لا ٢٤ : ٧) . واما الخمسة عشر مزموراً (١٢٠ – ١٣٤) فمرقومة لاستخدامها في

الصعود الى بيت الرب ، ولذلك دعيت بمزامير «المصاعد» .

نماذج متنوعة

ان تخصيص بعض المزامير بمناسبات معينة بالنسبة لعبادة الهيكل يلفت نظرنا الى هذه الحقيقة ، وهي ان تلك المزامير تختلف وتنقسم الى عدة انواع . فتوافق المزمور المائة (١٠٠) مع تقديم ذبائح الشكر امر لا يحتاج الى برهان . كما اننا لا نحتاج موضوعاً للمزمور (١٠٢) لنتأكد بانه صلاة رجل مصاب .

وهكذا كلما طالعنا كتاب المزامير بتمعن نجد بان هنالك مزامير أخرى شبيهة بالمزمورين ١٠٠ و ١٠٢ في قصدها ولغتها . عندئذ نبدأ بوضع تقسيمنا الخاص للمزامير . ومع ان امثال هذه المزامير غير مخصصة لمناسبات تقديم الشكر الجماعي او لابتهالات شخصية نرى بانها صالحة لتستخدم في مثل هذه المناسبات كتلك المرقومة او المخصصة للغاية ذاتها ...

وفي محاولتنا تصنيف المزامير علينا ان نتذكر امرين هامين : اولاً بان تلك الاشعار المقدسة لم تأتِ الينا مباشرة من كتب عبادة الهيكل ، ولكنها تحولت الى عبادة المجمع التي لم تكن مرفوقة بتقديم الذبائح ، وقد جرى عليها كثير من التغيير والتنقيح

مثلما يحصل لكتب الترنيم الحديثة التي تحتوي على مواد قديمة وحديثة مجموعة معاً ومنقحة لتصير صالحة للاستعمال في وقتنا الحاضر . فالمزموران الاول وال ١١٩ لم يكن لهما اقل علاقة بعبادة الهيكل كما يظهر ، ولكنهما يعكسان لنا الزمن الذي اصبحت فيه الشريعة الموسوية (اي الاسفار الكتابية الخمسة) محور العبادة لا العبادة المتعلقة بالهيكل ثانياً وقد اشير الى هذه الحقيقة سابقاً وهي انه في جمع هذه المواد القديمة والحديثة حصل بعض التنقيح والتنظيم لبعض تلك المزامير ، وهي مسألة طبيعية لا غبار عليها . ونحن في دراستنا لكتاب المزامير وأخذنا ببعض الملاحظات في تنظيم وترتيب نماذجها ، سنجد باننا مضطرون للاقرار احياناً بان مقطوعة شعرية خاصة قد نجدها مدمجة بمزمور أطول .

مزامير ذبائح الحمد

١ - ان مزامير ذبائح الحمد كالمزمور المئة (١٠٠) يمكن اعتبارها المجموعة الأولى . ونلاحظ بان الجماعة تشترك بتسبيح الله وتقديم الحمد له لانهُ صانع البشر وله نحن شعبه وغنم مرعاه . وهذه الفقرة الأخيرة كانت عبارة عن قرار يردده الشعب في

مناسبات خاصة (انظر مز ١٠٦ : ١ و ١٠٧ : ١ و ١١٨ : ١ و ٢٩ وبالاخص ار ٣٣ : ١١ وكامل المزمور ١٣٦) . والمزمور ٦٥ تسبيحة شكر من اجل ميزة العبادة ، ومن اجل القوة الالهية الظاهرة في الطبيعة وفي التاريخ وفي اثمار الارض . والمزمور ٧٥ يحمد الله لانه قاض بالمستقيمات . ان تسبيحة الشكر هذه تشبه الى حد بعيد تسبيحات الحمد والتمجيد ، ولكنها تختلف عنها في كونها تشير الى انواع خاصة من المساعدات الالهية . فالمزمور ٤٨ مثلاً ، يظهر كأنه يشير الى خلاص اورشليم من مثل تهديد سنحاريب (٢ مل ١٨ : ١٩) .

٢ - وهنالك تسابيح عامة تحدث بمجد الله وصلاحه وعظمته واردة في افضل نماذجها في المزامير ١٤٥ — ١٥٠ . والظاهر ان العنوان الذي تُستَهَلُّ به هذه المجموعة «تسبيحة التمجيد» كان مقصوداً بان يكون عنواناً للمجموعة بكاملها ، وانها كانت تنشد بالتناوب بين جوقتين متقابلتين . واما المزامير ١١١ — ١١٣ و ١١٥ — ١١٧ فتبدأ او تنتهي بالتهليل : هللويا تسبيحه قائم الى الأبد . وفي سفر الاخبار (١ أخ ٢٣ : ٣٠ — ٣١) نقرأ بان مثل هذه التسابيح كانت للوقوف كل صباح لحمد الرب وتسبيحه وكذلك للوقوف في المساء . ولكل اصعاد محرقات للرب في

السبوت والاهلة والمواسم بالعدد حسب المرسوم عليهم امام الرب .

ثم ان هنالك نوعين آخرين من تسابيح الحمد لله كخالق الطبيعة والمتسلط عليها وهي المزامير (٨ و ٢٩ و ١٩ : ١ - ٦) . والتسابيح الجديدة التي تعلن سلطان الله فوق جميع الأمم والشعوب (مز ٤٧ و ٩٣ و ٩٥) .

٣ - والتسابيح المختارة تعبر عن ايمانهم بالله يعقوب الذي هو مجنهم دائماً . كذلك صهيون المدينة المقدسة والهيكل المقدس في وسطها كانا موضوع تكريم الجماعة لانها مسكن الله ورمز قدرته المخلصة ... ما احلى مساكنك يا رب الجنود . تشتاق بل تتوق نفسي الى ديار الرب . قلبي ولحمي يهتفان بالاله الحي (مز ٨٤ : ١ - ٢) . ان ذكرى تخليصهم من عبودية المصريين انما هي تأكيد قاطع لمساعدتهم في كل زمان (مز ١١٤) عوننا باسم الرب الصانع السموات والارض (مز ١٢٤ : ٨) . كذلك نجد بين تسابيح العهد المزامير التالية : ٤٦ و ٤٨ و ٧٦ و ٨٧ و ١٢٢ .

٤ - ومزامير المملكة تشير الى الاحتفالات الدينية التي كان يشترك بها الملك . فعندما اصعد داود تابوت عهد الله من بيت عوبيد ادوم الى مدينة القدس ، كان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات يذبح ثوراً وعجلاً معلوفاً ، وكان يرقص

بكل قوته امام الرب . وكان متنطقاً بأفود من كتان وهو لباس الكهنة (٢ صم ٦ : ١٢ — ١٤) . وفي (١ مل ٨ : ٥ — ٢٢ و ٦٢ — ٦٤) نجد صورة عظيمة تمثل الملك سليمان وكل الشعب المجتمع معه امام التابوت ، وكانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة . والمزمور ١١٠ : ٤ يتكلم عن الملك كاهناً الى الابد على رتبة ملكي صادق . وهذا المزمور كالمزمور الثاني (٢) يظهر لنا الملك ذا علاقة فريدة مع الله . فهو الذي يحكم باسمه . والمزموران ٧٢ و ١٣٢ يظهر بانهما كانا عبارة عن صلاة تدشين كانت تقدم بمناسبة ارتقاء الملك الى العرش . والمزمور ٤٥ عبارة عن احتفال بعرس ملوكي . كذلك المزمور ٢٠ عبارة عن صلاة و ٢١ نبوءة بان الملك سيحرز انتصاراً في المعركة .

٥ — اما ابتهال الجماعة عندما كانوا يقعون في ضيق فملحوظ في مثل المزامير ٤٤ و ٧٩ و ٨٠ وفي زمن النكبات والاخطار التي كانت تهدد حياة الأمة كتلك المذكورة في (١ مل ٨ : ٣٣ — ٤٠ و ٤٤ — ٥٣) عندذاك كان يفرض الصوم على الجميع وكانوا يجتمعون في الهيكل لدرس الموقف والتضرع الى الههم . فكان الملك والكهنة والشعب جميعهم يلبسون المسوح ويتمرغون

في الرمـاد (اش ٣٧ : ١ و ٥٨ : ٥) متضعين امام الله ومذللين نفوسهم ومتوسلين لاجل النجاة من يد اعدائهم. وفي نبوءة يوئيل نجد وصفاً دقيقاً للصلاة التي قصد بهـا التذلل (يؤ ١ : ١٥ — ٢٠ و ٢ : ١٢ — ١٧) حيث يقول ارجعـوا اليَّ بكل قـلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح. عندما كانوا يضربون بالبوق فيجتمع الشعب ويحتشد الشيوخ ويجمعون الاطفـال وراضعي الثدي ويبكي الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح ويقولون : اشفق يارب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار حتى تجعلهم الأمم مثلاً. لمـاذا يقولون بـين الشعوب اين الههم (يؤ ١ : ١٣ — ٢٠ و ٢ : ١٧). فالفقرة الأولى تتحدث عن جفاف مخيف حصل في البلاد والثـانية شبيهة بلغة المزمورين ٤٤ و ٧٩. لا تجعلنا عاراً عند جيراننا هزءا وسخرة للذين حولنـا. لمـاذا يقول الأمم اين هو الههم. وفي ارميـا (ار ١٤ : ٢ — ٩) وصف للقحط المخيف الـذي جاء في اعقاب الجفـاف، ثم يختم بصلاة لاجل طلب الرحمة : وانت في وسطنا يارب وقد دعينا باسمك ... لا تتركنا.

كذلك المزموران ٧٤ و ٧٩ يصفـان خراب الهيكل الذي جلبـه الاعداء. والمزمور ٤٤ يشير الى يوم انكسار في معركة حربية : ولكنك قد رفضتنـا واخجلتنا ولا تخرج مع جنودنا.

ترجعنا الى الوراء عن العدو . (قابل الاعداد ٩ - ١٠ مع ١ مل ٨ : ٣٣ - ٣٤) . وفي المزمور ٨٣ نجد بان الامة باسرها كانت مهددة بالفناء . كما عندما لبس الملك حزقيا المسوح وذهب الى الهيكل طالباً مساعدة الرب ، بينما تهديدات سنحاريب وتعييراته كانت ترن في اذنه . ويختم تلك المناسبة بصلاة ابتهالية قائلاً : والآن ايها الرب الهنا خلصنا من يده فتعلم ممالك الارض كلها انك انت الرب وحدك (اش ٣٧ : ١ - ٢١) . كذلك المزمور ٨٠ هو صلاة ابتهالية لمثل تلك الاحوال .

٦ - صلوات ابتهال افرادية في وقت الضيق

هذه الصلوات الابتهاليـة التي نحن بصددها الآن ينبغي ان نلحظها قليلاً ... من اعجب الامور في ديانة التوراة ان الفرد لا يضيع في الجمهور . « الرب يهتم بي » (مز ٤٠ : ١٧) . واما انتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة (مت ١٠ : ٣٠) . قد نجد امثلة لهذه الصلوات في كتاب المزامير . فبعضها توسل للحصول على مساعدة في الحرب ضد اعداء شخصيين كالمزامير ٣ و ١٣ و ٥٤ . والمزمور ٢٨ يضع نصب عينيه خيانـة اصدقاء السوء . والمزامير الأخرى تصرخ طالبة الانتقام للابرياء من المقاومين (مز ١٧ : ٢٦ و ٣٥ و ٤٣ و ٦٤ و ٧١) . والمزمور ٥٦ يطلب

هيبة الشجاعة . وفي عدد من المزامير يظهر المؤلف انهُ مريض جداً ويصلي لاجل النجاة من الموت (مز ٦ و ٣١ و ١٠٢) . ثم يشعر صاحب المزامير بان الله قد تركه ونسيه (مز ٢٢ و ٤٢ و ٧٧) . واما الحاجة العظمى فالى الرحمة والتطهير والغفران (مز ٥١ و ١٣٠ و ١٤٣) .

ولا بد لنا من كلمة عن الادعاء بالبراءة والصلاة لله لاجل الانتقام من الاعداء (مز ٢٦) فهو لا يدعي بانه خال من الخطأ ولكنه بريء من سعاية معينة حيكت ضده . في حالات كهذه (١ مل ٨ : ٣١ – ٣٢) كان على المرء ان يحلف امام المذبح فيسمع الله في السماء ويعمل ويقضي بين عبيده ، اذ يحكم على المذنب ، فيجعل طريقه على رأسه ويبرر البار ، فيعطيه حسب بره . ومن المزمور (٢٦ : ٦ – ٧) نفهم بان ذلك الحلف كان يمارس بغسل اليدين في النقاوة والطواف بمذبح الرب لاسمع بصوت الحمد وأحدث بجميع عجائبك .

٧ – ثم ان تسابيح الشكر الفردية كثيرة الورود في كتاب المزامير . فللمزمور ١٠٧ ميزة خاصة بهذا الصدد ، لانهُ يذكر عدداً من انواع النجاة الكثيرة التي نجاهم منها فاستحق شكرهم . فمن الواضح بان تلك كانت مناسبات خاصة قدمت فيها الذبائح

التي نذرها المتعبد عندما كان في ضيق . لك ينبغي التسبيح يا الله في صهيون ولك يوفى النذر (مز ٦٥ : ١ . انظر ايضاً ٦٦ : ١٣ – ١٥ ويونان ٢) . ومن الواضح ايضاً بان تلك المراسيم كانت تمارس بحضور الجماعة : اوفي نذوري للرب مقابل شعبه . في ديار بيت الرب في وسطك يا اورشليم هللويا (مز ١١٦ : ١٨ – ١٩) .

٨ – كذلك صلوات الايمان الفردية والايمان بالله كانت جزءا من التوسلات للحصول على النجاة ، او ذات علاقة بها كما في المزامير ١٦ و ٢٥ و ٤٠ . وفي اوقات اخرى نجد بانها كانت مستقلة عنها او متعلقة بصلوات الشكر كما في المزامير ٢٣ و ٢٧ و ١٢١ . وقد نشترك مع هذه التأملات في عظمة الله وجوده وصلاحه المزامير (٨ و ٩١ و ١٠٣) . واما المزمور الأول فيذكرنا بالتطويبات الواردة في الاصحاح الخامس من انجيل متى . والمزموران ٣٧ و ٤٩ يضعان فلسفة الحياة على الارض وفي المزمور ٧٣ يعتبر صاحب المزمور مصاعب الحياة فيقرر بأن الله كان صديقه في هذه الحياة وسيكون نصيبه الى الدهر .

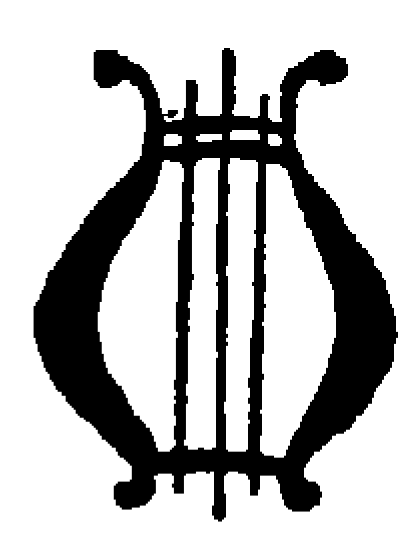
٩ – اما المزامير التي تدعو للاقتراب الى الله بالعبادة فتظهر ايماناً وثقة بالله وتضع شروط الايمان والاخلاق على اولئك الذين يقتربون الى الله : من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم في موضع

قدسه ؟ الطاهر اليدين والنقي القلب (مز ٢٤ : ٣ - ٤) . ويمكننا ان نقابل ذلك بالمزامير (١٥ و ٨٤ و ١٢٢) . فهذه المزامير تتحدث عن الايمان الشخصي وعن واجباته ولكنها تجمع على الاعتراف الجماعي بالله في العبادة الجمهورية .

وهكذا نرى انه باصوات عديدة وفي احوال مختلفة نظم المرغون القدماء هذه الصلوات ورتلوها تسابيح شكر وحمد لحفظت لنا عبر الاجيال في السفر الذي يعرف بكتاب المزامير . ان احوالنا الحاضرة في عالمنا الحديث تختلف عن احوالهم ، ولكن حاجاتنا الروحية لا تختلف عن حاجاتهم بشيء . ولهذا السبب نجد في المزامير العبارات التي تفصح عمّا يجول بخاطرنا وتنطبق مع العبارات التي نريد ان نوجهها لله .

الفصل الثالث

كيف حصلنا على كتاب المزامير ؟



لقد تحدرت الينا المزامير بطريقتين اولاهما بواسطة التوراة وثانيتهما بواسطة كتب الترنيم وكتب الصلاة الكنسية . في ايام مخلصنا كان كتاب المزامير قد أنجز وأعترف بـه كسفر من الاسفار المقدسة منذ اكثر من قرنين من الزمن . وكانت التوراة العبرية التي عرفها يسوع والتي كانت تقرأ في المجامع تعرف بناموس موسى والانبياء والمزامير (لو ٢٤ : ٤٤) . وفي القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ترجمت تلك التوراة الى اليونانية لخدمة اليهود الذين كانوا خارج فلسطين والذين كادوا ينسون اللغة العبرية . وبما ان اغلبية المسيحيين القدماء كانوا يتكلمون اليونانية اصبحت

التوراة المترجمة الى اللغة اليونانية توراتهم الأولى ومع مرور الزمن ألحق بها القسم الآخر المعروف بالعهد الجديد .

وصلت المزامير اذن الى الكنيسة المسيحية عن طريق الترجمة من اللغة العبرية الاصلية التي نظمت فيها . ثم نقلت فيما بعد الى اللغة اللاتينية ، وبذلك الشكل خدمت الكنيسة الغربية مدة تزيد عن الالف سنة . ولا تزال الكنيسة اللاتينية تستخدم المزامير باللغة اللاتينية القديمة ، بينما تستخدم الكنيسة الارثوذكسية الشرقية الترجمة اليونانية . وهكذا نجد بان اكثر الترجمات منقولة عن اللغة العبرية القديمة التي نظمت بها المزامير ونسقت والتي نسخها اليهود مدة اجيال عديدة .

اما المصدر الثاني الذي بواسطته تحدرت المزامير الينا ، فهو كتب الخدمات الدينية في الكنائس المسيحية . لقد اخذت الجماعة المسيحية الاولى التي كونت نواة الكنيسة عادة استخدام المزامير في العبادة كتسابيح وصلوات وابتهالات من المجامع اليهودية . فنسمع عنهم بانهم كانوا يعلمون وينذرون بعضهم بعضاً بمزامير وتسابيح واغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبهم للرب (كولوسي ٣ : ١٦) . ولم تمض مدة طويلة حتى اختاروا بعض المزامير وبعض الآيات التي وجدوها مناسبة للعبادة النظامية ، ثم

نسخوها في كتب خاصة . فكتاب المزامير ككل ظهر ككتاب خاص للعبادة الجمهورية والتأملات الروحية الخاصة . وفي الاديرة كانوا ينشدون كتاب المزامير بكامله مرة في الاسبوع حسب ترتيب خاص في الخدمات الدينية التي تقام في كل يوم من ايام الاسبوع . وكان يطلب من المرشح للرسامة ان يعرف المزامير كلها عن ظهر قلبه .

ان الخدمات الدينية والصلوات السحرية والمسائية في كتاب الصلاة للطائفة الانكليكانية الانجيلية ، مرتبة على غرار الخدمات في الاديرة ، وتهدف الى قراءة كامل سفر المزامير في مدة شهر من الزمن . واما طبعة كتاب الصلاة في اللغة الانكليزية فتختلف قليلاً عن التوراة العادية ، لان كتاب الصلاة هذا طبعة من القرن السادس عشر مأخوذة عن التوراة اللاتينية . وقد احتفظ بهذا الترتيب في كتاب الصلاة عندما اختاروا طبعة التوراة المنقحة عام ١٦١١ المعروفة بطبعة الملك جايمس المرخصة لانه اصبح مألوفاً لدى العابدين .

وهنالك نسخة أخرى تستعملها الطوائف المشيخية والمصلحة والفروع الانجيلية الأخرى في العالم المسيحي ، وضعت فيها المزامير بفقرات شعرية متقابلة لتستخدم تسابيح حمد في الكنيسة المسيحية .

من الطرافة ان نقابل هنا الأعداد الأولى من احب واجمل مزمور بين المزامير كافة كما وردت في نسخة التوراة المرخصة (الملك جايمس) وفي نسخة كتاب المزامير الشعرية لنلاحظ الفرق :

الرب راعي فلا يعوزني شيء
في مراع خضر يربضني
الى مياه الراحة يوردني (النسخة المرخصة)

الرب راعي لذلك لا اقدر ان احتاج شيئاً .
في مراعٍ خضر يرعاني
ويقودني بجانب مياه الراحة (كتاب الصلاة القديم)

الرب راعي فلا احتاج
هو يجعلني اربض
والى المراعي الخضر يقودني
حيث المياه الهادئة قريبة (المزامير الشعرية)

تقاليد قديمة

كنا نبحث الى هذا الحد في كتاب المزامير الذي اقتبسه المسيحيون الاولون في الديانة العبرية التي نشأ وترعرع فيها مخلصنا ولكننا لم نبحث عن كيفية وصوله الينا ، ولا كيف كتبت

تلك المزامير اولاً . وفي الفصل الثاني وجدنا بان مزامير عديدة نظمت خصيصاً للعبادة الفردية او الجماعية المتعلقة بالهيكل وذلك قبـل السبي البابـلي وبعده . غير ان هذه الحقيقـة هي جزء من كامل القصة . فتسابيح الحمد كانت تقدم في عبادة الله ، قبـل وجود هيكل سليمان ، كما نجد بعضاً منها قصد بهـا ان تكون قصائد تأمل وعبـادة شخصيين . والظاهر انهـا كانت مخصصة للعبـادة الفردية ، ولم يكن لها اية علاقة بالعبـادة الجماعية في الهيكل او في المجامع .

ان كتاب المزامير يحوي بين دفتيه ثمـار تقاليد قديمة من الشعر الديـني في تاريخ العبرانيين نجد اصولها في البركات الشعرية وفي اللعنـات التي يخبرنا كاتب سفر التكوين انهـا صدرت عن البطاركة الاقدمـين كنوح (تك ٩ : ٢٥ – ٢٧) واسحـق (تك ٢٧ : ٢٧ – ٢٩ و ٣٩ – ٤٠) ويعقوب (تـك ٤٨ : ١٥ – ١٦ و ٢٠ و ٤٩ : ٢ – ٢٧) . واليك نموذجاً من ذلك :

فليعطك الله من ندى السماء
ومن دسم الارض . وكثرة حنطة وخمر .
ليستعبد لك شعوب . وتسجد لك قبائل
كن سيداً لاخوتك . وليسجد لك بنو أمك

ليكن لاعنوك ملعونين . ومباركوك مباركين
(تك ٢٧ : ٢٨ – ٢٩) .

ان تلك التوسلات القديمة للحصول على بركات الله نجد لها مثيلًا في بعض المزامير كالمزامير (٣٥ و ٨٣ و ١٢٨ و ١٣٧) . ان بركة ملكي صادق لابرام (تك ١٤ : ١٩ – ٢٠) لانـه انتصر على اعداء الملك تذكرنا بالجزء الأخير من المزمور ١٨ .

لقد توصل العبرانيون الى ان يصبحوا أمةً ذات سيادة بعـد اجتيـازهم اختبـارات مريرة بخروجهم من ارض مصر وبعـدما صادفـوا عقبـات كأداء اعترضت سبيلهم في التيـه . وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت آثار اعمال الله العجيبة وتخليصه اياهم حسب اعتقادهم في تسابيح الشكر كالمزمور ١٠٦ وفي صلوات الابتهال كالمزمور ٨٠ . فـاذا عـدنا الى قصة خلاصهم من يـد اعدائهم المصريين الذين تبعوهم ليمنعوا خروجهم من مصر في سفر التكوين ١٤ و ١٥ عند البحر الاحمر نسمع مريم ومعهـا جميع النساء يغنين اغنية الانتصار هاتفات :

رنموا للرب فانه قد تعظم
الفرس وراكبه طرحها في البحر (خر ١٥ : ٢١) .

ان عبارة هذه الاغنية القديمة امدت صاحب التسبيحة المعروفة بتسبيحة موسى وبني اسرائيل (خر ١٥ : ١ – ١٨) بالفكرة والمبنى وهي تسبيحة كانت تستعمل في خدمة الهيكل كما نستنتج من العدد السابع عشر ، وكانت تهدف الى موضوع خلاص العبرانيين من العبودية . كذلك ذكر عن اشتراك النساء بالانشاد في حروبهم مع الفلسطينيين عندما كنّ يغنين ويرقصن بدفوف وبفرح وبمثلثات ويقلن :

ضرب شاول الوفه
وداود ربواته (١ صم ١٨ : ٧)

وفي اغنية دبورة الواردة في سفر القضاة نجد احتفالاً بيوم انتصار عظيم ، ونجد تلك الاغنية عبارة عن هتافات اشترك بها الشعب ابتهاجاً بيوم النصر (قضاة ٥ : ٣١) .

وهنالك نوع آخر من التسابيح الدينية عند العبرانيين كانت تقوم بها زمرة من الانبياء ، وقد ورد وصف ذلك في (١ صم ١٠ : ٥ – ٦) بعد ذلك تأتي الى جبعة الله حيث انصاب الفلسطينيين ، ويكون عند مجيئك الى هناك انك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وامامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون . لا شك ان المقصود بذلك انهم كانوا ينشدون

وهم سائرون اناشيد دينيـــة حماسية عـلى وقع آلات الموسيقى . ليؤيد هذا القول حادثة تاليــة وردت في (١ أخ ٢٥ : ١ - ٨) وهي عبارة عن ترتيب الخدمات الدينية وافراز بني آساف وهيمان ويدوثون المتنبئون بالعيدان والرباب والصنوج للخدمة لاجل غناء بيت الرب . وقـد وردت هذه الاسماء في مقدمة بعض المزاميد والتنبوء كما يظهر هنا معناه التحدث بحمد الله والتسبيح للرب .

وعندما اصعد الملـك داود تابوت عهـد الرب الى مدينـة اورشليم فعـل ذلك بفرح وهتاف وصوت البوق (٢ صم ٦ : ١ - ١٥) . ولا شك ان صاحب المزمور ٤٧ كان يفكر بمثـل تلك الاحتفالات الدينيـة المتعلقة بعبادة الهيكل عنـدما نظم تسبيحته القائـلة :

صعد الله بهتاف (مز ٤٧ : ٥)
الرب بصوت الصور

اي صعد الله الى (الهيكل) بهتاف . وذلك الهتـاف كان عبارة عن اصوات فرح وتهليل ، وربما كان دوراً يكررونه كما رأينا في اغاني النساء التي اشرنا اليها . وفي المزمور ١٨ الذي هو نسخة مختلفة قليـلاً عن النص الوارد في (٢ صم ٢٢) نجد شرحاً شعرياً مفصلاً لمثل ذلك الهتاف . . .

الرب صخرتي وحصني ومنقذي
اله صخرتي بـه احتمي
ترسي وقرن خلاصي (٢ صم ٢٢ : ٢) .

ثم ان التقرير الوارد في (١ مل ٨) عن تدشين الهيكل يلقي نوراً افضل على تطور المزامير . فالملك في تلك الايام كان غالباً يتخذ صفة رئيس الكهنة . فهنا يتفوه سليمان ببركة على الجمع المحتشد بكلمات نجدها ايضاً في المزمور ٧٢ :

مبارك الرب الذي اعطى راحة لشعبه
مبارك الرب الله . الصانع العجائب وحده
ومبارك اسم مجده الى الدهر
ولتمتلىء الارض كلها من مجده
آمين ثم آمين
(مز ٧٢ : ١٨)

ويلي ذلك صلاة تدشين طويلة وشاملة ومتشعبة يذكر فيها الملك سليمان مختلف المناسبات التي فيها يوجه مزمور ابتهالي لله في بيته الذي بناه لعبادته وبينها صلاة تبرئة البري‌ء (٣١ – ٣٢ ، انظر مز ٢٦) وصلاة لاجل طلب الرحمة بمناسبة اندحار الشعب امام العدو (٣٣ – ٣٤) (انظر مز ٤٤) . وصلاة لاجل

طلب المطر في ايام القحط (٣٥ – ٣٦) (انظر مز ٦٥ و ٨٥) وصلوات اخرى لاوقات الضيق (٣٧ – ٤٠) (انظر مز ٦٩) وصلاة قبل بدء المعركة (٤٤ – ٤٥) (انظر مز ٢٠) .

وعند تتويج الملك كانوا ينفخون بالبوق ، وكان الشعب يصفقون بالايادي هاتفين : ليحيَ الملك (١ مل ١ : ٣٩ و ٢ مل ١١ : ١٢) فهذه العبارة ترد في المزمور ٧٢ : ١٥ مما يدل على ان ذلك المزمور كان يستخدم اغنية تتويج تنظم لمثل تلك الغاية ، وربما كان يغنيها احد الانبياء في سياق الاحتفال في الهيكل . ومن غير الطبيعي ان تستعمل في غير مناسبات من العبادة الجمهورية .

وفي كتب انبياء العهدين الثامن والسابع قبل الميلاد ، نجد الارشادات للترنيم في العبادة . فعاموس يتحدث عن ضجة الاغاني ونغمة الرباب عند تقديم المحرقات (عا ٥ : ٢٣) . وفي الاصحاح (٨ : ٣) اشارة الى اغاني القصر التي تتحول الى ولولة في يوم القضاء العظيم . والنبي اشعياء يقول :

تكون لكم اغنية كليلة تقديس عيد .

(اش ٣٠ : ٢٩)

لتقابل ذلك بالمزمور ١٣٤ : ١

هوذا باركوا الرب يا جميع عبيد الرب
الواقفين في بيت الرب بالليالي

كذلك يتكلم النبي ارميا عن صوت القائلين احمدوا رب الجنود - صوت الذين يأتون بذبيحة الشكر الى بيت الرب :

احمدوا رب الجنود لان الرب صالح
لان الى الابد رحمته (ار ٣٣ : ١١) .

والمعروف ان ترانيم الهيكل قد صمتت لمدة من الزمن عندما استولى البابليون على المدينة المقدسة عام ٥٨٦ ق . م. واحرق الهيكل ، وحملت جماعات كبيرة من العبرانيين الى ارض السبي . وبعد مضي عدد من السنين على سبيهم تصور احدهم الحزن والشوق اللذين استحكما بالمسبيين الى ارض غريبة ، فنظم ذلك الحنين في المزمور الذي صار يعرف بالمزمور ١٣٧ :

على انهار بابل هناك جلسنا
بكينا ايضاً عندما تذكرنا صهيون
على الصفصاف في وسطها علقنا اعوادنا
لانه هناك سألنا الذين سبونا

كلام ترنيمة . ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين
رنموا لنـــا من ترنيات صهيون
(مز ١٣٧ : ١ — ٣)

وفي سنة ٥٣٨ ق . م . اجتـاح كورش ملك الفرس مملكة بابل ، وسمح لليهود المسبيين بالعودة الى فلسطين ليرمموا الهيكل . فاوحت تلك المناسبة الى شاعر آخر فنظم المزمور التالي :

عندما ردّ الرب سبي صهيون
صرنا مثل الحالمين
حينئذٍ امتلأت افواهنا ضحكاً
والسنتنا ترنمـــاً (مز ١٢٦ : ١ — ٢)

ان الكلمة العبرانية المترجمة في هذه العبارة بترنيم الهتاف هي نفسهـا المستعملة في المزمور ١٠٧ : ٢٢ . وهذا المزمور الاخير من ترانيم الشكر التي رافقت ذبائح الحمد :

وليذبحوا له ذبائح الحمد
وليعدوا اعماله بترنم (مز ١٠٧ : ٢٢)

والحق يقـال بان المزمور ١٠٧ انمـا هو ترنيمة ذبيحة حمد . فنجــد في (عز ٣ : ١٠ — ١٣) انهم فيما كانوا يضعون الأساس

لترميم الهيكل اقام الكهنة واللاويون يرددون بالصنوج لتسبيح الرب على ترتيب داود ، وغنوا بالتسبيح والحمد للرب لان الى الأبد رحمته (عز ٣ : ١١) . وكثيرون كانوا يرفعون اصواتهم بالهتاف بفرح . ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب ، لان الشعب كان يهتف هتافاً عظيماً حتى سمع الصوت من بعد (عز ٣ : ١٢ – ١٣) .

وفي تلك الحقبة التي جاءت في اعقاب السبي البابلي ، جمعت المزامير القديمة وأضيف عليها مزامير جديدة صالحة لخدمة الهيكل والموسيقى المتعلقة بتلك الخدمات ، وقد اهتموا بمراجعة تاريخهم حتى زمن داود النبي (١ أخ ١٥ : ١٦ – ١٦ : ٤٢) . ويتعذر علينا ان نعرف فيما اذا كان احد المزامير قد نظم خصيصاً لعبادة الهيكل في اورشليم أم لغير معابد للرب كبيت إيل حيث سجد وتنبأ عاموس او كشيلوه حيث كان عالي كاهناً .

ان هذا الامر خطير اذا ما عنينا بتاريخ الكتاب المقدس ، ولكنه يظهر بدون فائدة اذا ما اتخذنا تلك المزامير للعبادة دون النظر بتاريخها ومعرفة الاحوال التي نظمت فيها . فعندما نترنم بترانيم دينية مسيحية ، لا يهمنا ان يكون ناظمها شاعراً كاثوليكياً عاش منذ عدة قرون ، او مؤمناً انجيلياً من ابناء

الزمن الحاضر . والذي يهمنـا من الامر هو اننـا نستطيع ان نتخذ كلماتهم ونجعلها خاصتنا في تسبيحنا لله وترنيمنا للرب الهنا .

مزامير شعب الله

ان كل مزمور نظم في الدرجة الاولى من قبـل شاعر خاص وهو يعبر عن مشاعر ذلـك الرجل الدينيـة ، وعما تعنيه تلـك الاختبارات له شخصياً . ان ذلك حق مع انـه في بعض الاحيان كان يلحق ذلـك المزمور بعض التنقيح والتغيير والتبديل حسبما كان يرى جامعو تلك المزامير في مجلد واحد ، كما يحصل عندما نحاول اليوم تنقيح بعض الترانيم عند اختيارها ، وجمعها في كتاب واحد لخدمة العبادة .

غير ان اصحاب تلك المزامير لم يكونوا مجرد مؤمنين عاديين فحسب ، ولكنهم في احيان كثيرة كانوا زعماء قومهم ، يتكلمون باسمهم ، ويمثلون جماعتهم التي كانوا ينتسبون اليها وهي الكنيسة العبرية القديمة – اي شعب الله المختار .

وكان الكتبة والناظمون والمؤلفون يتكلمون من اختباراتهم . بقي علينا ان نرى فيما اذا كانوا يتكلمون كافراد يمثلون انفسهم فقط ام انهم كانوا يمثلون تلك الجماعة المتعبدة معاً . او هل كان

الكثيرون منهم يجمعون على الجهر معاً وبصوت واحد كما نشترك نحن اليوم بالترنيم :

صوت يسوع قائل يا متعبَ القلب
تعال وارتع بالهنا وانظر اذن حي

ومما لا ريب فيه ان كتاب المزامير يحتوي على صلوات فردية كثيرة كما يحتوي على صلوات اخرى جماعية . فخدمة الهيكل بالذات كانت تفسح المجال ايضاً للعبادة الفردية ولقطع العهود وتقديم النذور للرب كما في (١ صم ١ : ٣ - ٢ : ١٠ واع ٢١ : ٢٣ - ٢٦) . وكان الناس يصعدون الى الهيكل ليصلوا في مختلف الاوقات كما ورد في (١ مل ٨ : ٤١ - ٤٢ ولو ١٨ : ١٠) ولا شك ان اولئك الافراد قدموا صلواتهم وابتهالاتهم في بيوتهم وفي امكنة اخرى حسبما نستنتج من (دا ٦ : ١٠ ومت ٦ : ٦) لذلك نجد كثيراً من الصلوات الفردية في المزامير كما ورد في (مز ١٣ و ٤٢ - ٤٣ و ٥١) . فصلاة طلب البراءة الشخصية ضد فاعلي الاثم كما في المزمور ٢٦ والصلاة المرافقة تقديم ذبائح الحمد ووفاء النذور كما في المزمور ١١٦ لا شك كانتا صلاة فردية رفعها كل منها لغرض معيّن .

اما من الناحية الاخرى نرى بانه وان يكن المزمور ١٢٩ قد كتب بصيغة الافراد فهو يشمل الامة العبرية ونعني بها الجماعة او الطائفة المجتمعة للعبادة .

كثيراً ما ضايقوني منذ شبابي
(ليقل شعب الله)
كثيراً ما ضايقوني منذ شبابي
لكن لم يقدروا عليّ (مز ١٢٩ : ١ — ٢)

وفي المزمور (٦٠ : ٩) نقرأ ما يلي :

من يقودني الى المدينة المحصنة

ومن نص المزمور نستنتج بان ناظمه قصد الاستنجاد بالله على اعدائهم الذين اوقعوهم في العسر .

أليس انت يا الله الذي رفضتنا
ولا تخرج يا الله مع جيوشنا
أعطنا عوناً في الضيق
فباطل هو خلاص الانسان
بالله نصنع ببأس وهو يدوس اعداءنا

(مز ٦٠ : ١٠ — ١٢)

ثم ان طريقة الالتفات التي يتبعها الكاتب فيستخدم ضمير المتكلم المفرد اولاً ثم يعود الى ضمير الجمع نجدها واضحة في (مز ١٢٣ : ١ — ٢) حيث نقرأ :

اليك رفعت عيني يا ساكناً في السموات
هوذا كما ان عيون العبيد نحو ايدي سادتهم
كما ان عيني الجارية نحو يد سيدتها :
هكذا عيوننا نحو الرب الهنا حتى يترأف علينا .

غير ان عدداً من المزامير لا تستعمل سوى الجمع (انظر مز ٤٤ و ٤٨ و ٦٧) وفي المزمور ١٣٥ نجد الجمع ثم الالتفات الى المفرد ثم الى الجمع اخيراً :

سبحوا يا عبيد الرب

الواقفين في بيت الرب في ديار بيت الهنا يسبحون الرب قائلين :

لاني انا قد عرفت ان الرب عظيم
وربنا فوق جميع الآلهة . (مز ١٣٥ : ٥)

ان كثيراً من المزامير تعكس لنا اذن صلوات وتسابيح

الكنيسة العبرية . وليس ذلك فقط ولكنها تعكس لنا اختبارات الجماعة ومعاملة الله اياهم كشعب خاص . فحاجتهم كانت عامة وكانت تربطهم شركة ايمان واحد ورجاء واحد في الرب . فجاءت تلك المزامير من كنيسة العهد القديم الى كنيسة العهد الجديد . ولقد كونت تلك الجماعة العبرية قديماً امة كباقي الأمم لها حياتها القومية الخاصة وتاريخها الخاص . وكان كثيرون من اصحاب المزامير يربطون مصير امتهم السياسي بعلاقتها الروحية بالله ، ويعتبرون خلاص الرب اياهم جماعة وافراداً مظهراً اكيداً لرضى الرب عنهم او لاهماله اياهم ... وهنالك اختلاف آخر وهو ان الله لم يكن آنذاك قد فدى شعبه بتجسد وحياة وقيامة مخلصنا الرب يسوع المسيح .

ان التسابيح والصلوات التي كانت تستخدم في العهد القديم لم تكن قد تغيرت بروح وقوة العهد الجديد . لذلك عندما نستعمل تلك المزامير القومية في عبادتنا المسيحية علينا ان ننظر اليها ونعتبرها على ضوء انجيل الرب يسوع العام . ومع ذلك فسنرى في الفصل القادم بان المزامير يمكن تحويلها الى تسابيح مسيحية عندما ننظر اليها على ضوء نور اكمل . ان المهم هو ذات الاله الذي اختار الانبياء لدعوة الناس اليه ، والذي اخيراً وفي

ملء الزمن ارسل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية .

ان تلك المزامير تحدرت من زمن قديم ومن درجة في الاعلان الالهي ، كان الرب يسوع نفسه الهدف الاسمى لذلك الزمن وبداءة عهد جديد . فجاءت تلك المزامير كاشعة الفجر المبكر التي تزداد اشراقاً وتألقاً حيناً بعد حين حتى اشرقت الشمس بكاملها وبدأ النهار الجديد الأفيح .

تفاوت روح العبادة

ان المزامير تضرب على اوتار مختلفة وتعطي انغاماً متفاوتة من الروح التعبدية . فنرى بينها اولاً تسابيح فرح وابتهاج تصف عظمة الله وصلاحه . فعشرة بينها ومن جملتها الخمسة الاخيرة في المجموعة مبنية على العبارة العبرية « هللويا » التي تعني « سبحوا الرب » وهي هتاف متكرر ينم عن شعور فائض بالفرح الروحي ... فهو الرب :

الصانع السموات والارض
البحر وكل ما فيها .
الحافظ الامانة الى الابد

المجري حكماً للمظلومين
المعطي خبزاً للجيـــاع (مز ١٤٦ : ٦ — ٧) .

وهنــالك تسابيح أخرى كالمزمورين (٩٥ و ١٠٠) تبــدأ بالدعوة للتسبيح للرب والهتــاف بترنيات له ، ليس لاجل عظمته وقدرته فحسب ، بل لانه اظهر رحمته نحونا واقترب منا بالعطف والحنــان :

فهو الذي صنعنا
وله نحن شعبه وغنم مرعاه (مز ١٠٠ : ٣) .

كذلك تعنى مزامير اخرى بالفكرة ان الله اله كبير ومتسلط على كل الآلهة ، وان صلاحه سينتصر اخيراً :

لانـــه جاء . جاء ليدين الارض
يدين المسكونة بالعدل والشعوب بامانته
(مز ٩٦ : ١٣)

ومما هو قريب من هذه التسابيح ترانيم الشكر لله والحمد له من اجل اعماله في الماضي ، وخلقه العالم ، واختياره بان يخلص شعبه وهي الأسس التي بنت عليها الأمة العبرية ايمانها :

لك ينبغي التسبيح يا الله في صهيون ...
بمخاوف في العدل تستجيبنا يا اله خلاصنا
يا متكل جميع اقاصي الارض والبحر البعيدة
المثبت الجبال بقوته المتنطق بالقدرة
(مز ٦٥ : ١ و٥ و٦) .

الله معروف في يهوذا اسمه عظيم
ابهى انت امجد من جبال السلب
من انتهارك يا اله يعقوب
يسبّخ فارسٌ وخيلٌ (مز ٧٦ : ١ و٤ و٦) .

هنا اشارة الى انكسار فرعون مع جيشه في البحر الاحمر .
انظر ايضاً (خر ١٥ : ١) .

موسى وهرون بين كهنته
وصموئيل بين الذين يدعون باسمه
دعوا الرب وهو استجاب لهم (مز ٩٩ : ٦) .

باركي يا نفسي الرب
ولا تنسي كل حسناته (مز ١٠٣ : ٢) .

ان الروح الغالبة في هذه التسابيح - تسابيح الايمان والحمد -

يعبر عنها بوضوح المزمور (١٢٦ : ٣) :

عظم الرب العمل معنا وصرنا فرحين

ثم ان بين تلك التسابيح التي قصد بها الحمد من اجل عطية الحياة والحصول على الخلاص ، بعض الترانيم التي تشير الى بركات خاصة والى نجاة معينة . فالمزمور ١٢٤ يعطي الحمد لله لاجل النجاة التي حصلوا عليها في احدى المعارك الحربية :

لولا الرب الذي كان لنـــا
عندما قـام النـاس علينـــا
اذاً لابتلعونـــا احيـــاء (مز ١٢٤ : ٢ - ٣).

كذلك تختلف نفسية الشعراء الذين نظموا تلك التسابيح في اوقات مختلفة معبرين عن شعور الأمة في الاوقات العصيبة . فلقد كانوا يشعرون احياناً بان الايمان كان يخوض معركة فاشلة لا محالة :

خلص يا رب لانه قد انقرض التقي
لانه قد انقطع الأمناء من بني البشر

(مز ١٢ : ١) .

فالظلم قد ساد والشر تفشى وتحكم :

ارتفع يا ديان الارض
جاز صنيع المستكبرين
يبقون يتكلمون بوقاحة
يسحقون شعبك يا رب
ويذلون ميراثك (مز ٩٤ : ٢ و٤ و٥) .

ولماذا لا يعمل الرب ؟ ولما يقف بعيداً ؟ ولماذا يبقى صامتاً ؟ أليس لانه غضب على شعبه ؟ وهل نسيهم ابداً ورفضهم ؟ ان ناظم المزمور ٤٤ : ٢٣ يجيب على ذلك وهو يذهب الى ان الله يتغافل ، او انه غير مهتم بمذلة اسرائيل . لذلك يقول : استيقظ ! لماذا تتغافى يا رب ... استيقظ :

يا رب لماذا تقف بعيداً
لماذا تختفي في ازمنة الضيق (مز ١٠ : ١) .

اللهم لا تصمت ولا تسكت ولا تهدأ يا الله
(مز ٨٣ : ١) .

هل الى الدهر تسخط علينا

هل تطيل غضبك الى دور فدور (مز ٨٥ : ٥).

ثم انه من المحقق ان المزامير نظمت لبعض اعياد دينية خاصة كما نستخدم نحن بعض التراتيم الخاصة في التقويم الكنسي المسيحي :

ارفعوا نغمة وهاتوا دفاً
عوداً حلوا مع رباب .
انفخوا في رأس الشهر بالبوق
عند الهلال ليوم عيدنا . (مز ٨١ : ٢-٣)

ان الاشارة الواردة في العدد الخامس من هذا المزمور « عند خروجه على ارض مصر » تشير الى ان هذا المزمور كان عبارة عن ترنيمة يرنمونها في احتفالات عيد الفصح . وهكذا يمكن القول عن المزمور ١٣٥ . واما لعيد الحصاد فالمزموران ٦٥ و ٦٧ هما في غاية الموافقة .

تعهدت الارض وجعلتها تفيض
تغنيها جداً ...
كللت السنة بجودك
وآثارك تقطر دسماً (مز ٦٥ : ٩ و ١١).

وفي الاحتفـال بعيد رأس السنة كان المؤمنون يترنمـون للرب « بترنيمة جديدة » عربون ولاء له كملك عظيم ومهوب جداً ويدين الشعوب بالاستقامة :

رنموا للرب ترنيمة جديدة
رنمي للرب يا كل الارض .
لان الرب عظيم وحميد جداً
مهوب هو على كل الآلهة .
قولوا بين الأمم الرب قد ملك
ايضاً تثبتت المسكونة فلا تتزعزع
يدين الشعوب بالاستقامة . (مز ٩٦ : ١ و٤ و١٠) .

وهنـالك مجموعة من المزامير للخدمات الاجتماعيـة المتعلقـة بحوادث قومية ، لا بالعبادة النظامية . فنحن نذكر ايضاً بان شعب الله في العهد القديم كانوا ايضاً امة بين أمم اخرى . حتى عنـد زوال الملكية وعندما اصبح رئيس الكهنة رئيساً زمنيـاً ايضاً على بني قومه واخذ مكان الملك ، كان الشعب العبراني يعتبر نفسه أمة مختارة وذات تاريخ قومي مجيـد . ان بعض المزامير كما رأينـا سابقاً تعكس ذلك الرجاء القومي في حيـاة واختبار الأمة ، وبالاخص الدور الهام لمركز الملكية .

فالمزمور ٤٥ ليس صلاة ولا تسبيحة لله ولكنه قصيدة موجهة للملك الحاكم ولعروسه بمناسبة زواجهما . وقد احصي بين المزامير لان الملك كان ينظر اليه ليس كانسان اعتيادي ، ولكن كشخص مختار وممسوح لوظيفة مقدسة ، كرئيس لشعب الله وكرئيس كهنة لامته . ان الكلمة العبرية المستعملة لرسامة الملك هي « المسيا » اي المسيح او الممسوح ، وعلى هذا الاعتبار استخدمت عبارات المزمور في (عب ١) ليسوع كالمسيا الحقيقي .

فقط عندما نعود الى قصائد رائعة كالمزمورين ٤٦ و ٤٨ نستطيع ان نجد افضل مثال لايمان الامة في احدى ازماتها القومية . فمهما تراكمت المصائب فالايمان لا يتزعزع ولا يخضع للخوف :

الله لنا ملجأ وقوة
عون في الضيقات وجد شديداً
لذلك لا نخشى ولو تزحزحت الارض
ولو انقلبت الجبال الى قلب البحار

(مز ٤٦ : ١ — ٢) .

في هذين المزمورين نجد مدينة الله — صهيون — القديمة والتاريخية ، التي هي مركز العبادة ، وقبلة انظار الحجاج من المؤمنين — انها

قد اصبحت رمزاً لحضور الله في وسط شعبه . وكانت الجماعة تردد بقرار ايمانهم الراسخ بمساعدة الله اياهم – رب الجنود السماوية واله جدهم يعقوب والههم ايضاً . ان حياتهم القومية كانت مركزة على اسس عميقة وقوية يعتمدون عليها عندما تنقلب الجبال الى قلب البحار ، وتعج وتجيش المياه وتتزعزع الجبال بطموها ، عند ذاك يرى جميع الناس ما يعيش شعبه لاجله ، وهم مستعدون بان يموتوا في سبيله . وهكذا صارت الامة شعباً لله بقيادة نبيه موسى . ومع انهم كانوا يبتعدون عن الله وعن اتباع طرقه ، فلقد خبروا ما فعله الله من اجلهم ، وتأكدوا ان فيه وحده ضمانتهم وخيرهم ورجاءهم للمستقبل :

رب الجنود معنا .
ملجأنا اله يعقوب (مز ٤٦ : ٧)

مزامير المؤمن

ربما كانت المزامير التي وصلت الينا والتي تفصح عن ايمان فردي واختبارات دينية شخصية ، اقرب الى قلوبنا من تلك المزامير القومية التي عكست حياة الجماعة العبرية القديمة . ومع ان تلك الصلوات وتلك التسابيح تحدرت الينا من اشخاص عاشوا

في الزمن القديم ، فهي تعبر بطريقة لا نظير لها عن اشواق النفس الى الاله الحي . وبالحقيقة ان تلك المجموعة تتميز بشدة اشواقها الروحية ، فهي لم تكن مجرد عبارات تصدر عن الشفاه فحسب بل كانت نفثات صادرة من اعماق نفس الانسان وكيانه وشعوره وموجهة الى ذاك الذي يسمعها ويستجيبها ، وفي استجابتها حياة الانسان الروحية بكامل اشواقها وحنينها .

ان الروح السائدة في تلك الصلوات الفردية في كتاب المزامير هي روح التوسل والابتهال . فالكتّاب يتكلمون عن ضعفهم الكامل ، وعن احتياجاتهم لمعونة الله وخلاصه . وكانوا في بعض الاحيان مصابين بمرض خطير ، او كانوا في خطر الموت ، ولم يعد لهم رجاء بالخلود المبارك :

ليس الاموات يسبحون الرب
ولا من ينحدر الى ارض السكوت

(مز ١١٥ : ١٧) .

فبناء على ذلك تعالى النشيد :

عد يا رب . نجّ نفسي . خلصني من اجل رحمتك

(مز ٦ : ٤) .

يبست مثل شقفة قوتي
ولصق لساني بحنكي
والى تراب الموت تضعني (مز ٢٢ : ١٥) .

وكثيراً ما يشير الكاتب الى سبب اضطرابه ، ويعزو ذلك الى مضايقة اعدائه اياه والى ترك اصدقائه ونسيانهم له :

كل مبغضي يتناجون معاً علي
عليّ تفكروا باذيتي .
ايضاً رجل سلامتي الذي وثقت به ...
آكل خبزي رفع عليّ عقبه
(مز ٤١ : ٧ و ٩) .

وبعض الكتبة يرون بان شهود زور قد قاموا عليهم ، وان حياتهم مريرة تحت شعور الاعتداء ، ولعدم حصولهم على العدالة الاجتماعية :

لا تسلمني الى مرام مضايقي
لانه قد قام علي شهود زور (مز ٢٧ : ١٢) .
اكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب
اعتز مستهلكيّ اعدائي ظلماً

حينئذ رددت الذي لم اخطفه (مز ٦٩ : ٤) .

ثم ان الاستهزاء الموجه الى ايمان الكاتب كان امتحاناً شديد القساوة :

صارت لي دموعي خبزاً
نهاراً وليلاً اذ قيل لي كل يوم :
اين الهك ؟ (مز ٤٢ : ٣) .

وكذلك فهو في حزن وارتباك عندما لا تستجاب صلاته :

الهي الهي لماذا تركتني ؟ (مز ٢٢ : ١) .

وهي العبارة التي رددها الرب يسوع المسيح وهو على الصليب . فالاله الازلي هو ملجأه الوحيد ورجاؤهم الفريد :

اما انت يا رب فلا تبعد
يا قوتي اسرع الى نصرتي (مز ٢٢ : ١٩) .

ان رغبة اولئك القديسين القدماء كانت تهدف بالاكثر الى التأكد من حضور الله الدائم معهم ، ومن اهتمامه بشؤونهم ، ومن احقاقه الحق واعادتهم الى سابق الشركة معه ، وفرح الشعور

القومي بعلاقتهم بـه وعلاقته بهم . فصلواتهم لم تكن للحصول على عطاياه بل للحصول عليه نفسه بالذات :

بسطت اليـك يديّ
نفسي نحوك كارض يابسة (مز ١٤٣ : ٦) .

وكانوا يطلبون رحمته وعدله وامانتـه (مز ٨٦ : ١٥) كما كانوا يطرحون بانفسهم بين يدي حمايته وقدرته (مز ٧١ : ١) . وفيما كانوا يطلبـون الاقتصاص من اعدائهم واحقـاق الحـق في الشكاوي التي كانت توجه اليهم (مز ٢٦) فقد كانوا في ذات الوقت مستعدين للامتحان ولتحمل القصاص في حالة استحقاقهم اياه (مز ٧ : ٣ – ٥) وربمـا كان المزمور ١٤١ مبنيـاً على نص الآية القائلة : « ولا تدخلنا في تجربة ... »

هذا وقد علم كتّاب المزامير الحالات الادبية التي فيها ينبغي ان ترفع الصلاة ، فاعترفوا بخطـاياهم واقروا بعـدم كفاءتهم وبكل تواضع طرحوا نفوسهم امام مراحم الله العظيمـة . كما اعترفوا بالواجبـات المطلوبـة منهم تجاه الههم كما تأكدوا بان الذبيحة المقبـولة لديه ، انما هي في اخضاع كبريائهم امام الله وتكريس ارادتهم له . وان ايمانهم ليولد رجاء فيما هم ينتظرون استجابة الله الذي آمنوا به لادعيتهم :

من اجل اسمك يا رب اغفر اثمي
لانـــه عظيم (مز ٢٥ : ١١) .

قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله
وروحاً مستقيماً جدد في داخلي .
لا تطرحني من قدام وجهـــك
وروحك القدوس لا تنزعه مني
ذبائح الله هي روح منكسرة
القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره
(مز ٥١ : ١٠ — ١٧) .

انتظرتك يا رب انتظرت نفسي
وبكلامه رجوت (مز ١٣٠ : ٥) .

عطشت نفسي الى الله — الى الاله الحي
(مز ٤٢ : ٢) .

اما صلوات الشكر وتأكيد الايمان والتـأملات بعظمة الله وعجائب اعلاناته ، فهي انواع اخرى من الاقوال الفردية ، علينا ان نلمح اليها . ومما هو حري بالنظر ألا نجد صلوات شفاعية ... فلقد تعلمنا من المسيح يسوع فقط بان نصلي بعضنا لاجل البعض .

فصلوات الشكر عامة وخاصة :

رنموا للرب يا اتقياءه
واحمدوا ذكر قدسه .
لان للحظة غضبه
حيـــاة في رضاه (مز ٣٠ : ٤ — ٥)

احمدوا الرب لانه صالح
لان الى الابد رحمته (مز ١٣٦ : ١)

كذلك بعض طلبات التضرع والتوسل كالمزمور ٥٤ و ٦٩ تنتهي بهتـاف الحمد للجواب المقدم . وبعضها مكرسة بجملتهـا للشكر من اجل حصول المؤمن على سد حاجته :

احمدك من كل قلبي
قدام الآلهة ارنم لك .
في يوم دعوتك أَجبتني
شجعتني قوة في نفسي (مز ١٣٨ : ١ و٣)

والجواب الاهم هو عطية الحياة الفضلى بحضور الله المؤكد :

تعرفني سبيل الحياة

امامك شبع سرور
في يمينك نعم الى الابد ! (مز ١٦ : ١١) .

واما توكيدات الايمان فليست معنوية غامضة بل هي شخصية ومبنيـة على الروية . هنا نجد التقليد الحقيقي الذي يربط المـاضي بالحاضر في مجموعة شركة القديسين :

عليك اتكل آباؤنا
اتكلوا فنجيتهم . (مز ٢٢ : ٤) .

والمزمور الثـالث والعشرون يلتفت الى الوراء ليرى صلاح الله الفياض الممثل بشركته الالهية وعنايتـه في الايام المظلمة كما في الايام المشرقـة . والمزمور ٩١ يرينا بان المؤمن الـذي ينجي في ظـل القدير ، يجد ملجأً حصينـاً من المخاوف والشرور المكبلة في ازمنة الخطر . وفي المزمور ١٢٥ يرى السائح في الجبال المحيطة به علامة لعنـاية الله الذي لا ينعس ابداً . والمزمور ٧٣ يخبرنا عن تجربة الايمان :

اما انا فكادت تزل قدماي
لولا قليـل لزلقت خطواتي .
لاني غرت من المتكبرين

اذ رأيت سلامة الاشرار
حقاً قد زكيت قلبي باطلاً
وغسلت بالنقاوة يدي (مز ٧٣ : ٢ و٣ و١٣) .

ولم يحصل المؤمن على معرفة الحقيقة الا بالعودة ثانية الى اختبار العبادة .

حقاً في مزالق جعلتهم
اسقطتهم الى البوار .
كيف صاروا للخراب بغتة
اضمحلوا فنوا من الدواهي .
ولكني دائماً معك
امسكت بيدي اليمنى
من لي في السماء
ومعك لا اريد شيئاً في الارض
(مز ٧٣ : ١٨ و١٩ و٢٣ و٢٥) .

ان من اعظم المزامير تلك التي تعنى بالتأملات بالله وباعلانه الالهي التي ترتفع على اجنحة الايمان الى التسبيح والعبادة :

ذوقوا وانظروا ما اطيب الرب
طوبى للرجل المتوكل عليه (مز ٣٤ : ٨) .

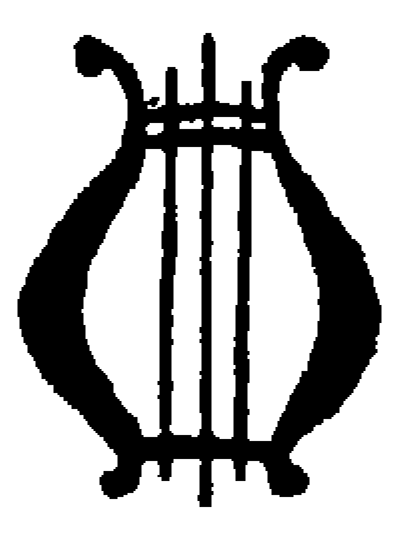
الرب نوري وخلاصي ممن اخاف
الرب حصن حياتي ممن ارتعب (مز ٢٧ : ١) .

في مثل هذه المقتطفات نجد اهم جواب على السؤال الذي يتصدر هذا الفصل . ففي عناية الله ابي ربنا يسوع المسيح هذه الاقوال قد حفظت منذ القدم لكي تساعد على اضرام نار ايمان مماثل فينا . ولقد كانت تتردد هذه العبارات على شفاه عدد لا يحصى من رجال ونساء نظيرنا .

انها تعلمنا كيف نصلي كما علم مخلصنا تلاميذه . وهو نفسه استخدم تلك العبارات لكي يتكلم مع ابيه الذي في السموات . ان كتاب المزامير الذي كانت الامة العبرية تستخدمه للترنيم الكنسي في العبادة ، اصبح اثمن جزء من الكتاب المقدس عند المسيحيين . . .

الفصل الرابع

مزامير عبرية في توراة مسيحية



لقد سبق فالمحنا في المقدمة الى الاسباب التي دعت المسيحيين الى اعتبار المزامير واحترامها بصورة دائمة . انها تعطينا اكثر من اي سفر آخر في الكتاب لغة التسبيح والحمد والصلاة . وهي تفي بحاجة الجماعة المتعبدة . ودعوتها شاملة لجميع انواع البشر في مختلف احوالهم . وان مجرد استخدامها في الكنائس المسيحية بصورة عامة في وقتنا الحاضر كما كانت لعدة قرون خلت ، يرينا الشبه العظيم بين عبادة العبران في افضل حالاتها والعبادة المثالية التي تمارس بالروح والحق .

ومع ذلك تبقى هناك حقيقة أخرى بارزة وهي انها ورثتنا

هذه المزامير من عبـادات الهيكل والمجمع التي سبقت عبـادة المسيحيين . وهي تفصح بلغـة قديمة حوادث متباينـة كتبت فيهـا . انهـا تمثل طوراً قديمـاً من الوحي والايمـان . فمن الضروري اذن ان تقصّر هذه المزامير عن الفهم المسيحي الكامل لطرق الله ، وعن حقيقة الايمان المبهجة كما نراها في العهد الجديد . وكمسيحيين علينا ان نقرأ كلماتها بطريقة جديدة ، لانـه بالمسيح يصبح كل شيء جديداً .

لغة الهيكل الطقسية

ان كثيراً من المزامير نظمت كتسابيح ، او صلوات او نذور او بركات او غـير ذلـك من الاصطلاحات التي رافقت الذبائح والاحتفالات والمراسيم المتعلقة بعبـادة الهيكل . ففي المزامير ٢٤ و ٦٨ و ١١٨ بعض الاشارة الى عبادة الهيكل لا يمكن تجاهلها . كذلك فـان بعض التسابيح والصلوات جازت بعض التبديلات لتناسب عبادة الجامع حيث لم تقدم ذبائح حيوانات على المذابح المرتفع عنها الدخان . في الحقبة الاخيرة من العبادات العبرية اخذت الصلاة مكان الذبائح كما كانت مرسومة في شريعـة موسى . حتى في الهيكل ذاتـه كانت اصوات الانبيـاء والمصلحين تعلن

الملأ بان ما يطلبه الله من عبيده انما هو تكريس قلبيّ بدلاً من التقدمات التي يقدمونها .

بذبيحة وتقدمة لم تسر
اذني فتحت محرقــة .
ذبيحة خطية لم تطلب
حينئذ قلت هاءنذا جئت
بدرج الكتاب مكتوب عني
ان افعل مشيئتك يا الهي سررت
وشريعتك في وسط احشائي (مز ٤٠ : ٦ — ٨) .

ان المسيحي يعرف بانــه لا يمكن ان دم ثيران وتيوس يرفع خطايا ، وان يسوع المسيح جاء ليفعل مشيئة الله . وانـنـا بهذه المشيئـة نحن مقدسون بتقــديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة (عب ١٠ : ٤ و ٩) وانــه ان اخطأنا باختبـارنا بعدما اخذنا معرفــة الحق لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا (عب ١٠ : ٢٦) . فعندما نقرأ المزامير ونصل الى بعض العبارات الطقسية ، نستطيع ان نشاطر روحيــاً ما قصد بتلــك الاصطلاحات ، لا ان نتقيــد بمعناها الحرفي .

فمثلًا على ذلك انـنــا لا نغسل ايدينا لاعلان براءتنا ، كما

نطوف حـول المذبح (مز ٢٦ : ٦) ومـع ذلـك نستطيع ان نستخدم هذه الكلمات للتعبير عن تصميمنـا بان نعود عن شرنا فنحيـا . وعندما نصلي للحصول على النقاوة الداخلية مقتبسين من المزمور ٥١ : ٧ لا نتطهر بالزوفا ، فنطهر ، كما كان يفعل المؤمنون القدماء ، ولكننا نشاطرهم شعورهم العميق بحاجتهم الى النقـاوة!. وقد نعيد النذر المتعلق بالمحرقـات (مز ٦٦ : ١٣ - ١٥) ولكن ذلـك لا يعني اكثر من تعهد لتكريس الـذات لارادة الله وخدمته ...

كذلك لا نحتفل دينياً كالعبرانيين لكل مطلع هلال جديد ومع ذلك فنستطيع ان نرنم قائلين : رغوا لله قوتنا ... انفخوا في رأس الشهر بالبوق عند الهلال ليوم عيدنا (مز ٨١ : ١ و٣) وكأس الخلاص (مز ١١٦ : ١٣) التي اتناولها لم تكن سوى وعاء تسكب منه الخمرة كتقدمة شكر لله في مناسبة شفـاء من مرض . ولكنها ذات معنى جديد لنـا وهي كأس الشركة التي لنا بالمسيح رمزاً لدمه المسفوك على الصليب لمغفرة خطايا العـالم . ان الكلمات هي نفسهـا بالذات ولكن المعنى تغير لانـه يتخذ الان معنى اكثر غنى واقرب تشبيهاً وعلاقة .

معتقدات غير مسيحية

لقـد وردت بعض المعتقـدات في المزامير هي دون المستوى المسيحي ، لحري بنا ان نعترف بان وحياً اسمى وارقى قد اعطي لنا بالمسيح . وهذا واضح من الطريقة التي يذكر فيها الناظم الموت . فاولئك القديسون من الآباء لم يحيوا ليساهموا في الايمان بقيامة المسيح . ومع ان رجاءهم بالله كان عظيماً ، وان الموت لا يفصم شركتهم مع الههم الا ان معظمهم لم ينعموا بتعزية كهذه .

كذلك حسب اولئك الناس بان كل مرض كان علامة على غضب الله ، وانه بالامكان الحصول على الشفـاء اذا هم اعترفوا بخطاياهم ونالوا الغفران .

ليست في جسدي صحة من جهة غضبك
ليست في عظامي سلامة من جهة خطيتي
(مز ٣٨ : ٣)

اننا نؤمن حقاً بان هنالك اتصالاً وثيقاً بين ابتعاد الانسان عن الله وبين الآلام الجسدية التي تصيب البشر . ولكننا نعرف ايضاً الكثيرين من الاصحاء جسدياً انهم يكونون مرضى بالروح والعكس بالعكس الى درجة ان اقدس انسان قد يتألم من

امراض عضالة . فعندما يعلن صاحب المزمور ١١٢ بان من يخاف الرب يحصل على المكافأة وعلى النجاح والفلاح ، فهو يعلن حادثة نموذجيـة خاصة ، ولم يكن يضع مبدءا عاماً او قاعدة ادبيـة يمكن ان تكون شاملة .

كما ان كاتب المزمور ٧٣ وجد في سلامة الاشرار ونجاحهم الظاهري مشكلة مؤلمـة وموجعة . وهو قادر على تحليـل تلك المعضلة على مستوى روحي فقط ، وذلك عندما دخل مقادس الله وانتبـه الى آخرتهم فهو يتعلم بان يرى الحال على ضوء وجه الله وان يتأكد بان السعادة الحقة لا تقوم على النجاح المادي ولكن على الشركة الدائمة مع الله .

وهنـالك نقطة أخرى واردة في المزامـير تقصّر في مستواها الروحي عن الايمـان المسيحي ، وهي نظرتهم الى آلهـة الشعوب الاخرى . فمع ان الوصية الاولى بين الوصايا العشر تنص عـلى ان لا يكون لهم آلهة اخرى امام الله ، ولكن ذلك لم يحل المشكلة الموجودة ، ولم يحدد اذا كانت تلك الآلهـة موجودة ، ولها قوة حقيقيـة . فان بعض كتاب المزامير يظهرون كأنهم يعتقدون بوجود آلهة اخرى ، انما الله كان اعظم منها كلها .

ان تلك الآلهة اصنام فقط ولا الوهية فيها ولكن السموات

تحدث بمجد الله ، والفلك يخبر بعمل يديه . وفي المزمور ١١٥ : ٣ – ٨ نجد مقابلة ثانية بين الآلهة الاصنام التي لا تتكلم ولا تسمع والتي هي من صنع البشر ولا تستطيع ان تعمل شيئاً ، وبين الاله الحي الحقيقي ، القادر على كل شيء ، والموجود في كل مكان .

وهنالك صعوبة من نوع آخر تبرز امامنا عندما نسمع اصحاب المزامير يتكلمون عن الله كأن يتخذ شكلاً بشرياً مع ان له اجنحة كالطيور . فهو يركب على كروب (مز ١٨ : ١٠) بينما رجال الحرب يركبون الخيول . وهو يرمي سهامه (مز ٣٨ : ٢) كرجال القتال . وفي اوقات اخرى يجلس على عرش سماوي ويستهزيء بملوك الارض الذين يتآمرون مع الرؤساء على الرب وعلى مسيحه (مز ٢ : ٤) .

ان هذه التعابير عن الله انما هي صور مجازية من الكلام ، ولا ينبغي ان تؤخذ على صورتها الحرفية . وهي تعني بان الله هو اله شخصي وان الكائنات الأخرى التي نستطيع ان ندخل معها بالشركة الشخصية ، يجب ان تكون بشرية ، ولذلك كان طبيعياً ان نتكلم عن الشخص الالهي بنفس الصورة التي نتكلم فيها مع البشر . فعندما يقول الكتاب المقدس في (تك ١ : ٢٧)

بان الله خلق الانسان على صورته ومثاله فهو يعني بان هنالك تشابهاً بين الله والانسان يمكنه من اظهار نفسه للانسان ، ويمكن الانسان من التحدث الى الله .

ثم ان هنالك فرقاً آخر بين روح الانجيل ولغته وبين لغة المزامير ومستواها الروحي ، وذلك ظاهر في لغة الانتقام والاقتصاص من اهل الشر ، مما هو غريب عن تعاليم مخلصنا التي تأمر بمحبة الاعداء ومقابلة الشر بالخير .

هنا نجد فرقاً عظيماً احدثه الرب يسوع المسيح بمجيئه وتعليمه . ولا يكفي بان ندين اولئك العبرانيين القدماء الذين شعروا مثل ذلك الشعور ، وقالوا مثل ذلك القول . بل ينبغي ان ندرك لماذا فعلوا ذلك .

في الدرجة الاولى علينا ان نتسامح معهم بالنسبة لطريقتهم في المغالاة والغلو في التعبير عن النفس ، فيما كانوا يريدون الافصاح عنه . فعندما يريد الشاعر ان يصف قدرة الله الظاهرة تتزلزل الجبال بالهزات الارضية .

تلك صرخات في طلب النقمة من الاعداء بهذه الطريقة الشديدة ... ولكون اولئك الناس لم يعرفوا شيئاً عن الدينونة بعد الموت ، شعروا بان عدل الله ينبغي ان يتم هنا وفي الحال .

وفكروا بان ذلك يعني ان الاشرار ينبغي ان يشعروا بالألم كالذي سببوه لغيرهم من الناس ، لذلك جاءت كلماتهم اكثر من مجرد طلب ثأر شخصي ، بل وكانت ابتهالاً ايضاً الى الله لكي يحكم بين الحق والباطل . ان اولئك الكتاب لم يكونوا قد تعلموا بعد بان اموراً كهذه ينبغي ان تترك لجود الله وصلاحه ، وانهم لا يجب ان يجازوا احداً عن شر بشر ... بل ان يغلبوا الشر بالخير (رو ١٢ : ١٧ - ٢١) .

كذلك علينا ان نتذكر بانهم لم يستطيعوا ان يميزوا بين الخطية وبين الخاطيء ، او ان يفهموا بان الله يكره الخطية ولكنه يطلب الخاطيء لكي يخلصه منها . زد على ذلك انهم لم يدركوا اننا انفسنا لا ننتظر غفران الله لنا ، اذا لم نكن مستعدين ان نغفر نحن للمسيئين الينا . فالقساوة والشر كانا يعتبران جزءاً لا يتجزأ من الاشرار انفسهم . والطلبات التي قصد بها الانتقام من هؤلاء لم تكن سوى ابتهالات بان يجازى الناس من اجل تلك الشرور ، لا ان يتركوا في غيهم يعمهون .

مزامير ملكية وقومية

لم يكن فرق عند العبرانيين القدماء بين الكنيسة والدولة . ان تلك الجماعة نفسها ، الشعب المختار - صاروا كغيرهم امة بين

باقي الامم . وكان ملكهم الذي قادهم في القتال والذي قضى بينهم كقاض هو الذي يمسح مثل الكهنة ، وكان يقوم بوظيفة الكاهن امام المذبح في بعض الاوقات ، وكان يصلي الى الله ليساعد امته ضد اعدائهم ولاعلاء مبادئهم (انظر ١ مل ١ : ٣٩ و٣ : ١٦ – ٢٨ و ٨ : ٤٤ – ٤٥) .

ثم ان بعض المزامير كانت تضرب على وتر القومية اكثر من الدين . فالمزمور ٢٠ يمثل الملك والشعب يقدمون الذبائح ويطلبون المعونة الالهية قبل خوضهم المعركة . والمزمور ٦٠ يبدأ بابتهال الى الله بسبب اندحارهم في الحرب . وفي الاعداد ٦ – ٨ يتنبأ المرنم مصوراً الرب يطل شعبه في المعركة . وان معتقداً كهذا جاعلاً الله اله حرب ليس جديراً بان يدعى امير السلام . . . . كذلك المزمور ٤٨ : ٤ – ٧ يصف عاصفة اندحرت فيها اساطيل الاعداء . وفي المزمور ٨٣ صلاة للنجاة من عدو يهددهم . . .

اما اليوم فالكنيسة المسيحية قد تثبتت في كل العالم . فنشترك بالتسبيح لله الآب السماوي مع الاخوة في كل مكان . فالله ملك الملوك . وينبغي ان نصلي اليه لاجل الشعب الذي ننتسب اليه ، ولاجل الامة التي نحن من ابنائها كمواطنين صالحين . ولكن عندما نردد تلك المزامير القديمة ونشركها

بامور قومية علينا؟ ألا نستخف بعلاقتنا القومية مع الله . انه اوكل الينا نحن معشر المسيحيين بان نقف الى جانبه دائماً في محاربة الشرور والرذائل ، وان نطلب دائماً وابداً كأمة ملكوت الله وبرّه ، متذكرين انه من السهل جداً رؤية الشر في اعدائنا ، اكثر مما نراه في نفوسنا .

ان اولئك الملوك الذين تحدروا من سلالة داود قصروا عن الوصول الى المثل الاعلى . ولم تتحقق تلك الصفات الا في شخص يسوع المسيح بالذات . وهكذا وجدت كلمات الانبياء تحقيقها فيه . فعندما جاء الى يوحنا ليعتمد منه رأى السموات مفتوحة وسمع صوتاً يقول : انت ابني الحبيب الذي به سررت (مر ١ : ١١) . فالكلمات الاولى مقتبسة من المزمور (٢ : ٧) مزمور الملك الممسوح المعترف به والمرسل من ملك السماء . واما الجزء الآخر من العبارة فمقتبس من (اش ٤٢ : ١) وهي النبوءة عن عبد الرب المرسل الذي تألم لاجل خطية الكثيرين .

وهكذا نرى بان دعوة الله العليا جاءت الى مخلصنا بعبارات الكتاب الذي عرفه جيداً وأحبه كثيراً . فهو سيكون ملكاً ممسوحاً ، ولكنه سيكون عبداً خادماً مجروحاً لاجل معاصينا . وقد رفض تجربة حكم ممالك هذا العالم بابهة ومجد ارضيين.

لان مملكته تلك التي ستكون من البحر الى البحر انما هي كائنة في قلوب المؤمنين . هذا وقد كان هو اكثر جداً مما تصوره الانبياء وكتاب المزامير وحلموا به .

ولذلك فالالقاب والتسابيح التي كانت توجه اصلاً الى ملوك العبران الممسوحين ، والتي لم يبرهنوا بانهم كانوا اهلاً لها تحققت اخيراً بالرب يسوع المسيح . وهكذا عندما نستخدم تلك التسابيح القديمة واقوال الانبياء المبنية على التخيل انما نفعل ذلك ونحن مركزون جميع افكارنا وتأملاتنا في شخص الفادي ملك الملوك ورب الارباب الذي ملكه ملك كل الدهور وسلطانه الى دور فدور ...

الفصل الخامس

المزامير كترانيم وتسابيح مسيحية



لقد حاولنا تفهم المزامير على ضوء تاريخ نشأتها في العبادات اليهودية التي سبقت المسيحية . ان ذلك مهم ولكنها خطوة اولى فقط في سبيل ما هو اهم من ذلك ، وهو تفهم معنى المزامير وتقدير قيمتها كجزء من كلمة الله . لان في هذا العصر الحديث تحدثنا تلك الكتابات القديمة عن الاله الحقيقي الواحد الحي ، وعن مجد قدرته ، وعن تأكد عدالته ، وعن قرب رحمته ووفرة غنى محبته .

حقاً ان تلك المزامير تفعل اكثر مما تحدثنا عن الله وعن مشيئته وديونته وخلاصه . ان الله نفسه ما زال يحدث قلوبنا وعقولنا بواسطة تلك المزامير ، داعياً ايانا لكي نؤمن به ونطيعه .

ان اولئك الذين كتبوا تلك المزامير عاشوا قبل المسيح ، ولكن ايمانهم ورجاءهم كانا مركزين في الله الذي هو الهنا واله وأب مخلصنا يسوع المسيح . وهكذا فانّ ما كتبوه وما قدموه بالصلاة والتسبيح صار قسماً من التوراة المسيحية ، وجزءاً لا يتجزأ من الاعلان الالهي بالله الواحد الذي سبق فكلم الآباء بالانبياء قديماً بانواع وطرق كثيرة ، عاد فكلمنا في هذه الايام الاخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء ، الذي به ايضاً عمل العالمين (عب ١ : ١ - ٢) .

فعندما نقرأ المزامير نتحقق بان الله الذي يكلمنا فيها ، والذي يخاطبه كاتب المزامير هو الله الذي نعبده نحن المسيحيين . ففي بعض الاحيان فهم اصحاب المزامير بوضوح تام ما كان يلقنهم اياه الله ، واحياناً هم لم يدركوه بالتمام . ولقد خلفوا لنا شهادة ايمانهم ومقدار معرفتهم بالله . واحياناً تكلموا اكثر جداً مما ادركوه بعقولهم القاصرة ، وهكذا عندما يأخذ المسيحي المزامير يجد فيها مقدمات لاعلان الهي كامل ، تمّ بيسوع المسيح : « طوبى للذين آمنوا ولم يروا » (يو ٢٠ : ٢٩) .

ان قيمة وجود كتاب المزامير في التوراة ليس انها توصل الينا كلمة الله ، ولكنها تساعد على توجيه صلواتنا وتسبيحاتنا

بحوه تعالى . في تلك الاشعار المقدسة نجد بان الدين ليس مجرد معتقدات معنوية ، ولا يقوم بالشعائر والطقوس فقط ، ولا يعني بان يحيا الانسان حياة ادبية صالحة ، بل نرى هنا بان الدين الصحيح إنما يقوم بتعاملنا اليومي مع الاله الحي .

في مشارف اختبارات الحياة وانخفاضاتها هو الحقيقة العليا التي يتعامل معها الانسان . وهذه الصلوات والتسبيحات والتأملات تتصف بتلك النفحة السماوية العليا من اختبار حضور الله الدائم مع البشر .

زد على ذلك ان ديانة المزامير تتناسب مع حالتنا البشرية في مظهرين : فنحن افراد ينبغي ان يصلي كل واحد منا بقلبه وعقله . وفي الوقت عينه نحن كائن اجتماعي نعيش كجماعات في المجتمع . وحياتنا حياة مشتركة ، وهكذا نشترك باصواتنا وبصلواتنا وبتسبيحاتنا معاً بموجب ناموس الاجتماع الذي يميزنا كبشر عن سائر المخلوقات .

الاله الذي يتكلم في المزامير

فالانطباعات الاولى التي نحصل عليها من المزامير وما تحدثنا به عن الله ، هو انه رب متعالٍ ، سيد الكون الذي هو من صنع

يديــه ، والمتسلط عــلى البشر وعــلى جميع الأمم . كما ورد في مزمور ٩٥ .

والله هو قاضي الشعوب والحكام والافراد والكائنات العليا الموجودة في العالم الروحي . هذا وقد اعلن للعــالم كله ليروا بان الذي صنع هذا العالم ، لا يزال متسلطاً عليه ، وهو صالح . وللحق لا للبطل السيادة النهائية برغم كل المظاهر الاخرى .

وبسبب هذا الايمان وتلك الثقة بصلاح الله وعدله ورحمته رفع اولئــك الشعراء اصواتهم مصلين اليــه بحرارة لينجيهم من الشر والظــلم والطغيان . وكان ذلك الاله المعبود يحسب عنــدهم بطلاً منقذاً جميع المظلومين والضعفاء والابرياء ، والذين قد وشي عليهم ظلماً ، واولئك المصابين والمقعدين والفقراء . . .

ثم ان صلاح الله لا ينعكس فقط من كرهه للشر والظــلم ، ولكنه ظاهر ايضاً في اعماله في الخليقة وفي عنايته الالهيــة ، وفي عطيته الحياة والارض والطعام وباهتمامه الشخصي بالانسان وعنايته بعبيــده .

والتشديد على سمو عظمة الله وجوده وصلاحه تتبعــه شهادات صادقة لايمان اولئك الآباء بقرب الله من المؤمنين بــه . انه يهتم بهم ويستجيب طلباتهم حالاً ويعنى بشؤون عبيده اليومية .

يا رب قد اختبرتني وعرفتني
انت عرفت جلوسي وقيامي
فهمت فكوري من بعيـــد
مسلكي ومربضي ذريت
وكل طرقي عرفت

(مز ١٣٩ : ١ – ٣) .

ان الدين يصل الى عمق اعماق قلب الانسان ، وعلة كيانه . فتنكشف اسرار الكبرياء وتظهر حقيقــة الادعاءات ، ويرى المؤمن بانه مفتقر الى الغفران الالهي والى التجدد :

ها قد سررت بالحق في الباطن
ففي السريرة تعرفني حكمة
استر وجهك عن خطاياي
وامح كل آثامي
قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله
وروحاً مستقيماً جدد في داخلي

(مز ٥١ : ٦ و ٩ و ١٠) .

ان تلك الحميــة التي رافقت تلك الابتهــالات بعيدة جداً عن الافتراض السهــل بان الصلاة مجرد عبــارات يطلقهــا المؤمن ،

فيستجيب الله طلباته حسب رغبته . فالله ثابت لا يتغير ، وما زال كما كان . وهو ليس مستعداً لتلبية طلبات الانسان دفعة واحدة وبدون مماطلة او تسويف . فكتّاب المزامير عرفوا هذه الحقيقة بان الصلاة المستجابة هي التي تقول لله : « لتكن لا ارادتي بل ارادتك انت ، ولتكن مشيئتك وليس مشيئتي » .

وما لم يسلم الانسان نفسه لله المحتجب الذي اختار ان يعلن نفسه بابنه الوحيد ، وما لم يتحقق جهله الخاص وعدم اهليته فيما هو بعيد عن الله – ما لم يدرك كل ذلك فانه لا يحصل على جواب لصلاته ، والله نفسه لا يقدر ان يستجيب صلاة انسان الا متى تحققت هذه الشروط :

الرب في هيكل قدسه
الرب في السماء كرسيه
عيناه تنظران اجفانه تمتحن بني آدم
(مز ١١ : ٤) .

ان ابتهالات المرنمين في طلب المساعدة ، تنبعث من حالات خاصة التي يصفونها بعبارات ملحة ، فنسمع عن اعداء شخصيين واعداء قوميين ، وشكايات باطلة ، واضطهادات ، وامراض ، ومعاكسات اخرى . ومع ذلك فالحاجة التي يعبرون عنها انما هي

حاجة روحية ، وليست تغييراً في حالتهم .

انهم يطلبــون الشجاعة والرجاء والحكمة والقيــادة والولاء والتطهير والوداعة والقبول . وهم يشعرون بالوحدة والخيبــة عندما يهــددهم الاعداء ويحتقرونهم ، ويضغطون عليهم ، وينصبون لهم المكايد والشرور . ويتعجبون من نجاح البعض مع انهم يخالفون شرائع الله . ويظهر المستقبــل قاتماً جداً امامهم ، وهم يعرفــون ضعفهم وكم هو سهل ان يقعوا في الخطيــة ويستسلموا للشكوك . انهم يشقون في مضمار الجهاد .

معنى الحيــــاة

وعندما كان يمثــل المؤمن امام الله للعبــادة – عندذاك كان يحصل عــلى زيادة اطلاع من جهــة ارتباكات الحيــاة العميقــة واسرار وجوده .

ان ذلــك النور الذي يُلقى على مشاكل الحياة وعلى معانيهــا ، انمــا هو ثمرة الخلاص . فاصحاب المزامير يشاطروننــا ذلك النور الذي وجدوه وهم يتأملون ويتفكرون في حضرة الله .

فالعــالم المنظور تــكلم اليهم بايضاح عن مجد الله ، وحكمة الخالق العظيم الــذي بين يديه يضع المؤمن جميع مشاكل حياته .

فالسموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه (مز ١١٩ : ١ - ٦) . ان ذلك الاله بالذات كان قد تكلم الى شعبه بوصاياه التي هي « اشهى من الذهب والابريز الكثير واحلى من العسل وقطر الشهاد » (مز ١٩ : ١٠) .

وفي درس ناموس الله يجد المؤمن ثواباً عظيماً ولذة خاصة لا يحصل عليها رجل الدنيا وذو الميول العالمية . طوبى لذلك الرجل الذي مسرته في ناموس الرب ، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً لانه كشجرة مغروسة عند مجاري المياه التي تعطي ثمرها في اوانه ، وورقها لا يذبل ، وكل ما يصنعه ينجح (مز ١) .

وينبغي ان نشير ثانية الى ذلك المرنم الآخر الذي اوحى له مجد السموات فكرة صغر الانسان ومحدوديته كما عكست له عناية الله واختياره الانسان لكي يشاطره مسؤوليته الخاصة .

ولكن هذا الانسان الممجد من الله ، يحيا حياة قصيرة وغير مستقرة . فهو يزول ويُنسى ذكره . وليس لحياته من معنى ما لم يتحقق خلوده ويتعلم بان يتكل على صلاح الله وجوده ورحمته .

ثم ان بعض المرنمين (اصحاب المزامير) كانوا منزعجين بسبب ما أصاب أمتهم من سوء الطالع ، ومن الصعوبات التي واجهتها في تاريخها الديني . في المزمور ٤٤ مقابلة بين العطف الذي كان

يظهره الله لآبائهم مع عدم الاكتراث الـذي شعروا بان الله يبـديه نحوهم في حالات خاصة من الفشـل والاندحار والخزي . والمزمور ٧٤ يرثي الهيكل الخرب ، بينما الله لا يعطي اية علامة بواسطة انبيائه . فهل نسي الله شعبه ؟ وهل هو ساخط عليهم ؟ فمها كانت الاسباب فليس شعبـه فقط هو الذي يتـألم ، ولكن اسم الله قد جلب عليه العار .

ونحن ايضاً نستغرب كيف ان الله يسمح بالحروب والمجاعات والفواجع ان تحدث . وقد نتعجب لعدم وجود جواب لصلواتنا من اجل الخلاص والحصول على السلام . لقـد وجدنا في المسيح نوراً اكثر تألقاً واشراقـاً من ناظمي المزامير ، كما رأوا في ايامهم الحالكة بالظلمة والجهل . ولكنهم يغبطون لانهم حافظوا على ايمانهم بالله وانتظروا بصبر خلاص الههم .

ثقة الايمان

ان هذه الثقة بالله كضمانة لشعبه في عـالم مضطرب مشحون بالمخاوف والمخاطر ، كانت موضوع تلـك التسبيحـة المنتصرة في المزمور ٤٦ .

ولمرنم المزمور ٤٨ تظهر قصور وابراج صهيـون ، المدينـة

المقدسة ، رمزاً لعناية الله بشعبه وحفظه اياهم ، ليس فقط الى حين بل الى الدهر والابد .

ان ايمان الامة هو الثقة المشتركة لاولئك الرجال والنساء الذين تشكلت منهم الأمة . ففي حياة الامة نجد الشبه الصحيح لثقة الانسان الذي يستطيع ان ينام بسلام ، لان الله هو حافظ لنفسه .

طريقة الصلاة

لا شك اننا نستطيع ان نتعلم كثيراً عن معنى الصلاة .

اولاً : ان الصلاة الفعالة تفتقر الى ايمان قوي ، لانه يجب ان الذي يأتي يؤمن بانه موجود ، وانه يجازي الذين يطلبونه (عب ١١ : ٦) .

ثانياً : الامر الآخر الذي نلاحظه هو لجاجة تلك الصلوات والمثابرة عليها . وهذا يذكرنا بالمثل الذي قدمه مخلصنا عن قاضي الظلم الذي رفعت اليه الارملة قضيتها ولاحقتها بلجاجتها . هكذا كان اصحاب المزامير لجوجين في صلواتهم ... وكانوا يتحاججون واياه بعبارات قد تظهر شيئاً من عدم الوقار .

التسبيح الكامل

يعرف كتاب المزامير في التوراة العبرية بكتاب « التسابيح »
وقد استخدم لمدة قرون عديدة كتسابيح روحيــة في العبادات
اليهودية والمسيحية . فايمان الجماعة وشغفهم الروحي ، يمكن التعبير
عنها بصورة افضل بترانيم ، بــدلاً من القول المنثور . فعنــدما
نشترك بالترنيم تتحد قلوبنا ايضاً بوحدة روحية جماعية .

والرنّــة الموسيقية واللحن الغنــائي يزودان افكارنا باجنحةٍ
جديدة . وفوق ذلــك فبهجة الخلاص تتطلب افصاحــاً غنائيــاً
مجيداً . فالعبادة تمجيد والتمجيد عبادة .

ونحن نمجد الله ونسبحة ليس فقط لعطــاياه ، ولكن لكل
ما يعينه لنا . فهو مستحق شكرنا وحمدنا .

وهذا هو كمال التسبيح وهو ما تردد في سفر الرؤيا للقديس
يوحنا في اغنية الشيوخ امام عرش الله : (رؤيا ٤ : ١١) .

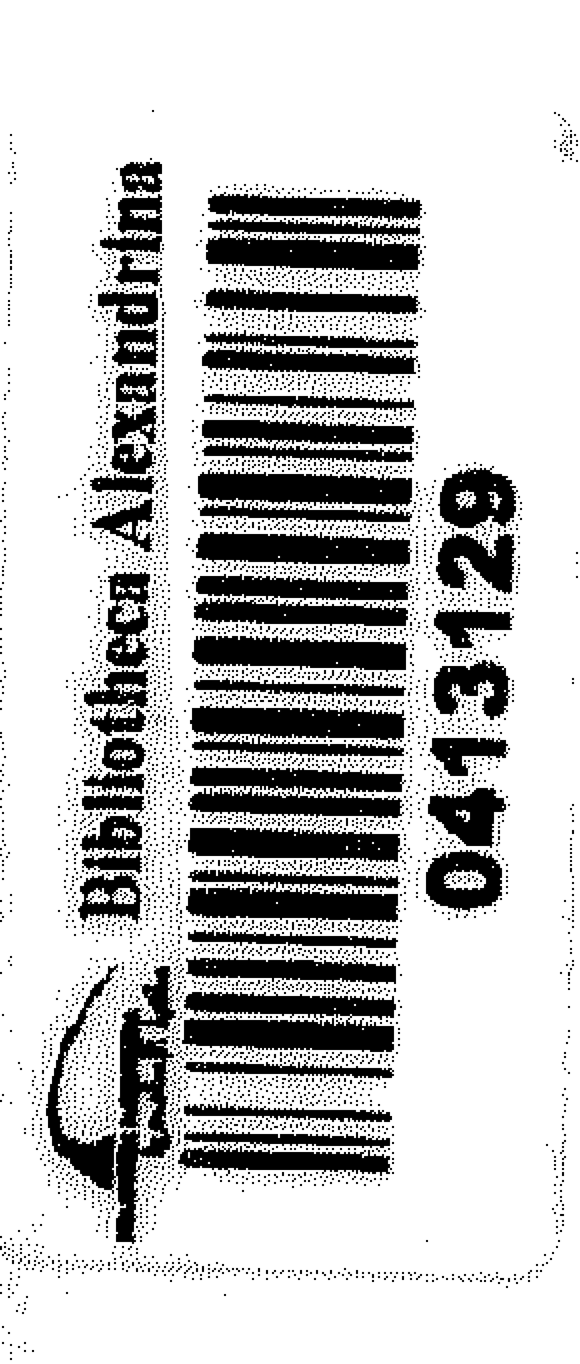
انت مستحق ايهــا الرب ان تأخذ المجد والكرامة والقدرة
لانك انت خلقت كل الاشياء وهي بارادتك كائنة وخلقت لك
المجد والسلطان الى ابد الآبدين .

وبهــذه التسابيح تشترك جميع مخلوقــات الله في السماء وعلى

الأرض :

باركي يا نفسي الرب
وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس
باركي يا نفسي الرب
ولا تنسي كل حسناته
باركوا الرب يا ملائكته
المقتدرين قوة
الفاعلين امره عند سماع صوت كلامه
باركوا الرب يا جميع جنوده
خدامه العاملين مرضاته
باركوا الرب يا جميع اعماله
في كل مواضع سلطانه
باركي يا نفسي الرب (مز ١٠٣) .

رقم ١٧
من السلسلة التي تبنتها لجنة
التأليف والنشر للمجمع
المسيحي للشرق الادنى
A. C. L. C.



طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٦٠